

روح التربية

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

تعريب

الدكتور طه حسين
الأستاذ في الجامعة المصرية

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر

مقدمة

الشرق العربي كله ناهض في هذه الايام . وليست نهضته سياسية محضة . وانما تجمع الى السياسة العلم والادب والاقتصاد والنظم الاجتماعية على اختلافها . ومن الاطالة ولغو القول أن نحاول اثبات ما فرغ الناس من اثباته من أن كل نهضة قيمة رهينة بشيء واحد هو صلاح التعليم

فاذا احتاج الشرق العربي الى شيء ليصل من نهضته الى ما يريد فهو محتاج الى تعليم صالح معتمد على قواعد صحيحة ملائمة لنفسيته وعاداته وآماله وأطواره المختلفة . فلم تخطئ اذن « مجلة الهلال » حين عنيت بمسألة التعليم فيما عنيت به من المسائل التي تمس الشرق العربي بل وفقت كل التوفيق وأحسنت كل الاحسان الى هذه النهضة الشرقية التي هي احدى دعائمها . ولقد قبلت مع شيء من الغبطة غير قليل أن أترجم هذا الكتاب حين طلبت الي « الهلال » ترجمته. وحسبي أن أشارك « الهلال » في تقويم هذه النهضة الشرقية وتوضيح سبيلها الى الخير

زعموا ان أرسطاطاليس أهدى كتبه الى الاسكندر فكتب اليه الاسكندر يقول لقد ألغزت كتبك . فاجاب أرسطاطاليس ألغزتها ولم ألغزها . يريد ألغزتها على العامة ولم ألغزها على الخاصة . وأنا أستعير هذه الصيغة التي تضاف الى ارسطاطاليس فأقول اني ترجمت هذا الكتاب ولم أترجمه . ترجمته لان رأياً من الآراء التي وردت فيه لن يفوت القارئ . ولم أترجمه لاني لم أتكلف النقل الحرفي . ولم أعدل عن النقل الحرفي كسلا أو مللا . وانما عدلت عنه ايثاراً لما لم يؤثره المؤلف من القصد والايجاز . فالمؤلف مطنب شديد الاطناب ، يكرر نفسه كثيراً شأن المؤمن المقتنع برأيه وهو كثير النقل مسرف في الاستشهاد يثبت الرأي الواحد بعشرات من القطع ينقلها عن الكتاب والعلماء المختلفين . ولو اني ذهبت في الترجمة مذهبه في الكتابة لأضفت الى هذا السفر مقداراً عظيماً من الصحف يمكن الاستغناء عنه ويثقل المضي في قراءته.

ولا سيا والكتاب لم يوضع لنقد التعليم في الشرق وانما وضع لنقد التعليم في فرنسا

فمن الحق على من يريد أن ينفع بهذا الكتاب وينتفع أن يستخلص منه الاراء التي تمس العيوب المشتركة بين التعليم الشرقي والتعليم الفرنسي دون أن يمسخ الكتاب او يفسده . ولم أفعل غير هذا . وأنا أرجو ان تقرأ هذا الكتاب فتصل منه الى نتيجتين اثنتين كلتاهما قيمة . الاولى الشعور بهذه العيوب الكثيرة الخطرة التي تفسد التعليم في مصر خاصة وفي الشرق عامة . الثاني العلم بالقواعد الاساسية التي يتخذها المصلحون المحدثون لتغيير النظم التعليمية على اختلافها وعلى اختلاف موضوعاتها وأطوارها . فالكتاب يبحث عن التعليم الفرنسي . ولكنه يدرس التعليم من حيث هو تعليم من حيث هو وسيلة الى تكوين نفس الفرد والى تكوين المثل العليا للأمم والشعوب . وقد تتغير النظم التعليمية بتغير البيئة واطوار الجماعات ولكن هذا التغير لا يمس هذه النظم الا في دقائقها ومفصلاتها . فاما جوهر التعليم فواحد لا يتعدد وان أخذ صوراً مختلفة وأعراضاً متفاوتة . وهذا الجوهر هو ان هناك نفساً انسانية امامها طبيعة ومن الحق على هذه النفس الانسانية ان تحسن العلم بهذه الطبيعة لتستطيع أن تعيش

هذا هو جوهر التعليم وغايته مهما تختلف الامم ومهما تفترق الشعوب . واذا كان هذا حقاً فسبيل المترفين على التعليم أن يحسنوا درس علم النفس في أطوارها المختلفة وان يلائموا بين هذه الاطوار وبين ما ينبغي ان يقسم لها من العلم

الى هذا قصد المؤلف فأحسن البحث وانتهى الى نتائج ـ ان لم تكن قاطعة ـ فهي عظيمة القيمة . واحسب اني لم اقصر في الترجمة ولم أفسد التحليل . وارجو ان يكون هذا الكتاب نافعاً في الشرق كما نفع في الغرب

المعرب

طه حسين

مقدمة

هذه الطبعة الجديدة

كان لهذا الكتاب قراء كثيرون فقد طبع خمس عشرة مرة وترجم الى لغات عدة ومع ذلك فلم ينته نجاحه بعد. على أن تأثيره في رجال الجامعة ظل ضعيفاً جداً . ذلك ان أساتذتنا محصورون في برامج ضيقة شديدة . فهم لا يستطيعون أن يخرجوا بالتعليم عنها . وهم يعلمون ما في هذه البرامج بنفس الطرائق التي اتبعت في تعليمهم

على أن هناك أسباباً اخرى تحول دون تغير مذهبنا في التعليم . سنجدها في هذا الكتاب . وهي تظهر السبب في أن الحرص الشديد على الاصلاح يظل عقيماً . وهناك دليل جديد على هذا العقم تأتى لي استكشافه في هذا الظرف الذي سأقصه عليك :

قرأ هذا الكتاب في احدى طبعاته القديمة عضو مشهور من أعضاء مجلس الشيوخ لا أعرفه الا بالشهرة وهو الاستاذ ليون لابي العضو بالمجمع العلمي والمجمع الطبي . فأقبل يزورني لينبئني بعزمه على أن يلقي في مجلس الشيوخ خطبة قوية يطالب فيها باصلاح التعليم عندنا . وجاء هذا العالم مرات يناقشني في هذا الموضوع كما ناقش فيه أصدقاء آخرين . وكانت نتيجة هذه المناقشات أن اصلاح التعليم لن يتأتى الا اذا غيرت نفوس الاساتذة . ثم نفوس الآباء . ثم نفوس التلاميذ . فاضطر هذا الشيخ النابه الى أن يعدل عن خطته امام هذه البداهة القاهرة

ولقد توخيت في الطبعات القديمة أن أقتصد في ذكر التعليم في البلاد الاجنبية . ثم بدا لي ان من النفع ان أتنزل الى التفصيل . فخصصت في هذه الطبعة فصولاً لمناهج التعليم في البلاد التي بلغ فيها التعليم أقصى أطوار الكمال

الممكن وهي الولايات المتحدة الامريكية . وهذه الفصول تظهر بُعد الهوة التي تفصل منهجنا ومنهجهم في تصور التعليم .

ذلك ان الاساتذة الامريكيين يسترشدون بدراية صحيحة بعلم النفس فيعرفون كيف ينمون عند التلميذ قوة الملاحظة . والتفكير . والحكم . والخلق . وأثر الكتاب في هذا التعليم ضعيف جداً بينما الاستظهار لا يؤثر فيه أثراً ما . نقيض هذا بالدقة هو الذي يجري في جامعتنا . فالشاب الفرنسي منذ يدخل المدرسة الابتدائية حتى يصل الى التعليم العالي لا يعقل الا استظهار الدروس . وقد تفلت بعض العقول المستقلة من هذا الاثر السيء أثر الجامعة ولكن جمهور الناس يخضع له أبداً . وهذا هو السبب في ان فرنسا اذا كان فيها نفر قليل ممتاز يحفظ مكانتها في العالم فان رجال الطبقة الوسطى فيها — أولئك الذين هم عماد الحضارة — يضعفون شيئاً فشيئاً عن القيام بواجبهم الاجتماعي . وكيف يمكن ان يتكونوا اذا كان تعليمنا لا يخلقهم ؟

وستظهر كل صفحة من هذا الكتاب دليلاً يقدمه رجال الجامعة أنفسهم على أن تعليم هؤلاء الناس ينحصر في استظهار الكتب الدراسية . ذلك شأن أشهر مدارسنا وهو مدرسة الهندسة . لا يزيد الطالب فيها على أن يحفظ استعداداً للامتحان أشياء لم يعرفها الا بالذاكرة فما أسرع ما تنسى

ولقد أحسن الحكم على هذا التعليم الفقير جداً الذي يعطى في هذه المدرسة خريج من خريجيها هو المسيو بيليطان المفتش العام للمناجم في بحث نشرته المجلة العامة للعلوم في ١٥ ابريل سنة ١٩١٠ . واليك قليلاً مما جاء فيه :

لا يتجه التعليم الا نحو الامتحان . فيفقد كل صفة علمية ولا ينمي الا الذاكرة . واذ لم يكن يطلب من طالب الهندسة الا أن يستظهر درسه دون ان يكلف بحثاً علمياً خاصاً فليس من سبيل الى معرفة قيمته الحقيقية . فيفوز أعظم الفوز حتى في الحساب اولئك الذين قويت ذاكرتهم وضعف حظهم من الذكاء . نجدهم دائماً في أول الصف بعد الامتحان

* * *

وقد يقال اذا كان تغيير التعليم عندنا مستحيلا او قريباً من المستحيل فما نفع كتاب ينشر في التعليم ؟ أليس من المعروف ان هذه المجموعات التي

لا نحصى من هـذه الـكتب التي تظهر في كل يوم في التعليم لا يقرأها الا مؤلفوها ؟

كذلك كنت اسأل نفسي منذ عشر سنين حين ساءني هذا الانحطاط الذي تقودنا اليه الجامعة فأخذت أفكر في تأليف هذا الـكتاب . ومع ذلك فقد اكرهت نفسي على كتابتـه . أولا لانه لا ينبغي بوجه من الوجوه أن نتردد في أعلان ما نعتقد انه نافع . ثم لاني كنت ممتنعاً بان الفكرة الصحيحة لابد من أن تنبت قريباً او بعيداً مهما تكن الصخرة التي تلقى عليها هـذه الفكرة يابسة صلبة

ولم آسف على نشر هذا الـكتاب . فقد قرأه قراء كثيرون لم أكن انتظر ان يقرأوه . وكان له أثر خاص كنت له أقل توقعاً . لم يحدث هذا الأثر في الجامعة التي بلغت منها الشيخوخة ان أصبحت غير قابلة للتغير . وانما حدث في طبقة من الناس لم أكن قط قد فكرت فيهم

ذلك ان مباحثي قد كان لها صدى في مدرسة خطيرة قد خصصت لتخريج قوادنا العسكريين . أريد المدرسة الحربية التي حماها حسن الحظ من تأثير الجامعة . فقد عني اساتذة علماء كالجنرال بونال والـكولونل دي مودوي وآخرين كثيرين بتعليم المبادىء الاساسية المبسوطة في هذا الـكتاب بطبقة نابهة من الضباط

ذلك ان نفع طرائق التعليم التي تسمح بتنمية الحكم والتفكير والملاحظة والارادة وضبط النفس كان يجب أن يظهر في صناعة الحرب بنوع خاص

فان اكتساب هذه الخلال وتحويلها الى صفات عادية لا يشعر بها صاحبها حتى تصبح مصدر سيرتنا هو فن التربية . وقد فهم الضباط فهماً صحيحاً ما لم يستطع رجال الجامعة أن يلموا به الماماً . وقد ظهر على ذلك دليل جديد في الـكتاب الحديث الذي نشره قومندان أركان الحرب المسيو جوتير بعنوان « بحث في نفسية الجند والقيادة » فيه نشرت المحاضرات التي القاها على الضباط وفصل فيها طرائق التعليم التي بسطها معتمداً على النتائج الحديثة لعلم النفس . ولعل جامعتنا تخضع لهذا الاصلاح الذي ترفضه بواسطة الجيش

ثم لم يبدأ رواج أصول التربية المبسوطة في هـذا الـكتاب في الجيش

الفرنسي وحده . فقد قال كاتب في بحث مفيد جداً نشرته المجلة البحرية العسكرية في انجلترا في ٨ مايو سنة ١٩٠٩ ما يأتي :

« لم تعرف التربية قط تعريفاً بلغ من الوفاء والدقة ما بلغه تعريف جوستاف لوبون اذ يقول « ان التربية هو الفن الذي يمكن من ادخال الشعوري في اللاشعوري » . وقد قبل رؤساء أركان الحرب الانجليز هذا الاصل على انه أساس للوحدة بين العقيدة والعمل في التربية العسكرية هذه الوحدة التي نحن محتاجون اليها »

ثم يظهر المؤلف باتقان تطبيق هذا المبدأ في التعاليم العسكرية الانجليزية الجديدة . ذلك ان رؤساء أركان الحرب الانجليز قد عرفوا ان ليس العقل هو الذي يبعث على العمل في ميدان الحرب وانما هي الغريزة ومن هنا وجب الاجتهاد في تحويل الشيء المعقول الى شيء غريزي بنوع خاص من التربية . فاللاشعوري هو مصدر القرارات السريعة . « يجب أن تصبح المهارة ووحدة المذهب شيئاً غريزياً بفضل التربية » . ذلك أحسن ما يمكن ان يقال

الكتاب الاول

البحث لاصلاح التعليم

الفصل الاول

تصور اساتذة الجامعة للتعليم

١

تاريخ هذه المحاولة المستمرة غير المنتجة — محاولة تغيير مذاهبنا في التعليم منذ ثلاثين سنة — مملوء بالفوائد النفسية . وهو يعين على اثبات ان الافكار الوراثية شديدة الاثر جداً في تدبير مستقبل الشعوب . وان هذا التصور اللاتيني القديم الذي يرى ان النظم التي مصدرها العقل الخالص يمكن ان تتحول وتتغير باصدار القرارات خطأ لا نصيب له من الصحة

فمنذ زمن طويل ما برحت اصوات الثقات تعلن ان تعليمنا غير منتج وغير ملائم للمعقول . وقد بذل كل جهد لاصلاح التعليم . فلم ينتج كل تغيير الا فساداً . وستجد في هذا الكتاب اسباب هذا الفشل . وربما كان من أهمها جهلنا العميق باسباب فساد التعليم في بلادنا . أليس هناك من سبيل الى شفاء العلة اذا لم تعرف اصولها . وانما تستطيع ان تحيط بمقدار هذا الجهل اذا قرأت هذه المجلدات الستة الضخمة التي تشتمل على التحقيق البرلماني في اسباب فساد التعليم . كيف تصل الاشياء الى العقل ، وكيف تثبت فيه ؟ وكيف يتعلم الانسان الملاحظة والحكم والتعقل والاحاطة بطرائق البحث ، هذه المسائل الاساسية لم يكد يتعرض لها الباحثون وقد اجمع الذين تكلموا امام لجنة التحقيق على سوء نتيجة التعليم . ولكن لم كانت النتيجة سيئة ، يظهر انهم جهلوا ذلك جهلاً تاماً

٢

ادهشني هذا الجهل الشديد لطائفة من المبادىء النفسية الاساسية فعنيت

في هذا الكتاب بان اظهر الاسباب الحقيقية لانحطاط التعليم عندنا وان ابين ان برامج التعليم التي يفترضونها مصدر الشر كله بريئة من هذا

ولو ان من الممكن ان تتغير آراؤنا الوراثية لكان كتابي نافعاً . فانا مضطر الى الاعتراف بان كتابي مع نجاحه في السوق لم يستطع في فرنسا ـ على اقل تقدير ـ ان يرشد او يقنع رجلاً واحداً من رجال الجامعة . وما يزال اساتذة الجامعة عندنا يبحثون عن اسباب انحطاط التعليم . هذه الاسباب التي كنت اظن اني بينتها وارشدت اليها

وقد تلم بضعف اساتذتنا عن استكشاف هذه الاسباب اذا قرأت الخطب التي القاها اشهرهم المسيو ليبان والمسيو ابيل امام جماعة ترقية العلم . فان اسمي هذين الخطيبين ومكانتهما تكفي للدلالة على ان خطبهما يجب ان تتخذ مصدراً تاريخياً صحيحاً ممثلاً لآراء زعماء الجامعة في التعليم

فقد قال المسيو ليبان وهو في ذلك يوافق جمهور زملائه « ان تعليمنا على اختلاف درجاته قد بلغ من الانحطاط منزلة لا سبيل الى الانحطاط بعدها » . وكان الاستاذ الجليل يظهر مقدار المعونة التي يقدمها ابناء الجامعات الالمانية للصناعة وعجز طلابنا عن مثلها . وكان يبين « هذا التأثير الالماني العالمي الذي يبعث الى مصانع اوربا وامريكا بمن تحتاج اليهم من العلماء » . وبينما يرقى العلم الالماني والصناعة الالمانية باضطراد ينحط علمنا وصناعتنا من يوم الى يوم

ولما لاحظ الاستاذ الرقي الالماني والانحطاط الفرنسي اضطر الى ان يبحث عن اسبابهما . ومع انه بذل جهداً عظيما للوصول الى هذه الاسباب فهو لم يصل حتى الى افتراضها . على ان تفكيره ان اخطأه الصواب فله قيمة غريبة . فهو يرى ان مصدر انحطاط التعليم عندنا ان نظامه يرجع الى اصل صيني حمله الينا اليسوعيون . « اذا كنا قد نجد هنا من حين الى حين جهلا لا سبيل الى اختراق حجبه . جهلا متأدباً حائزاً للشهادات كما يوجد ذلك في الصين . فسبب ذلك واضح : هو ان فن التربية قد حمل الينا من الصين . هذه حقيقة تاريخية فان فن التربية عندنا وليد الحكم القديم . نشأ في هذه الكلية القديمة . كلية لويس الاكبر . وهذه الكلية قد اقامها مرسلون يسوعيون بعد عودتهم من الشرق الاقصى »

وبعد ان وصل الاستاذ الجليل الى استكشاف العلة تحاول البحث عن الدواء : لا شيء أسهل منه . لاجل ان يكون التعليم راقياً حقاً يجب ان يستقل استقلالا تاماً عن موظفي وزارة المعارف . فيصيح الاستاذ مغضباً « ان الضرورة الشديدة تقضي ان يخلص التعليم من هـذا الادعاء البيروقراطي وان تحرر الجامعات من سيطرة السلطة التنفيذية . ذلك ان هذه السلطة ما زالت تثقل على التعليم العالي وتأخذه بطرائقها التعليمية التي ورثتها عن العهد القديم . ألا يتاح لنا وزير جريء يسلب السلطة التنفيذية حق اعطاء الدرجات والالقاب»

وقد علم البيروقراطيون فزعين عادا يتهمون . وقد دهشوا حين رأوا استاذاً من اساتذة السربون يجهل ان رجال الجامعة وحدهم هم الذين يضعون البرامج ويمتحنون الطلبة ويقررون الشهادات التي تعطيها السلطة التنفيذية

ولا ينبغي ان تظن ان مثل هذه الآراء التي قدمنا تفصيلها مقصورة على استاذ واحد . فكل اساتذة الجامعة يرون هذه الآراء أو أمثالها . كأن هؤلاء الاختصاصيين العظماء قد فقدوا كل قدرة على التفكير والملاحظة متى تجاوزوا موضوع اختصاصهم

لن يفلح بلد يحكمـه مجلس من العلماء كما عرض ذلك بعض السذج من الفلاسفة . وتجد دليلا آخر على عجز الاساتذة عن فهم الاسباب التي دعت الى انحطاط التعليم اذا قرأت خطبة اخرى كخطبة الاستاذ ليمان القاها امام الجماعة نفسها جماعة ترقية العلوم الاستاذ ايبل عميد قسم العلوم في باريس

فهو كزميله يبتدئ بنقـد التعليم واعلان انه لا يستطيع ان ينمي العقل لان الامتحان في جميع درجاته ليس الا اختباراً للذاكرة

النقـد صحيح . ولـكن الاستاذ لم يفهم اصل الداء فـكان دواؤه الذي وصفه عميا لا يدل على شيء فـكل سطر من أسطره ينم عن انه متردد فيما يفكر . وآية ذلك ما سترى من مشروعه للاصلاح :

ترى "الادارة" العلة وتجتهد في ان تجد الدواء . وهذا الدواء بنوع خاص في ان توجد صلات دائمة بين مدارس المعلمين الاولية وبين التعليم العالي !! ثم يقترح في مكان آخر « ان ينتفع بالجامعات في الدرس العلمي » . وفي مكان آخر يقترح اصلاحاً عظيماً هو الغاء قسم كبير من الدروس التي تلقى في معرض

النبات وتحويل هذه المعارض الى « متاحف اهلية تعرض فيها الفصائل والانواع النباتية »

ثم انتهى الخطيب بالشعور ان في آرائه شيئاً من الضعف . فعاد في مقال الى هـذا الموضوع واكد ان : « اول اصلاح يجب هو ترتيب مواد البرامج باعتبار قيمتها العملية والثاني تطبيق هذه القاعدة في الجامعات وفي اداراتها فيضيق تعليم بعض المواد ويوسع تعليم المواد الاخرى وتلغى دروس وتوجد دروس اخرى »

فترى ان احداً من هؤلاء الاساتذة العلماء لم يصل بعد الى افتراض أن مصدر الشر هو مناهج التعليم لا براجه وان هذه المناهج هي التي يجب ان تغير . فاما اقتراح ان تمد بعض البرامج وتقصر الاخرى وأن تلغى دروس وتنشأ دروس فلغو من الكلام لا خير فيه لانه لا يعتمد على فكرة أساسية

يظهر ان مسألة التعليم قد سحرت الناس . فقد القيت خطبة ثالثة امام جماعة ترقية العلوم القاها عضو معروف من أعضاء المجمع العلمي هو المسيو ش . لالمان

وليس بنا حاجة الى ان نقول ان مسيو ش . لالمان ليس من رجال الجامعة فذلك يظهر جلياً في الملاحظات الصحيحة الدقيقة التي زين خطبته

يذكر الخطيب اولا ان الغرض من التعليم انما هو تكوين العقل. ثم يلاحظ ان الجامعة لا تحسن تعليم اللاتينية ولا الفرنسية ولا شيئاً ما . ثم يشعر من جهة بان الاصلاح مستحيل في الحالة الحاضرة فيقترح ان يكون ما يدرس على أقل تقدير متصلا بالموضوعات النافعة فان اللغات الحية والعلوم ليست أقل قدرة على تكوين العقل من اللغة اللاتينية

يجب ان نعتقد ان نقد مسيو لالمان قد أصاب موضع الضعف فقد احدث حركة سخط عنيفة في صف رجال الجامعة . ولم يوفق الخطيب الى اقناع صحيفة كبرى بان تنشر رده على مقالات حادة نشرها احد العليلين الذين يعجبون بمناهجنا التعليمية

٣

اثبت جملا من الخطب الرسمية التي القيت حديثاً لايين الى اي حد من

الغور وصل جهل اساتذتنا فن التعليم . كل هؤلاء الاخصائيين النابهين مهرة مجوِّدون كما قلت ما داموا في معاملهم او مكاتبهم . فاذا تجاوزوها وهت أسباب تفكيرهم وضعفت قوتهم على الحكم ضعفاً ظاهراً

جهل الجامعة لا يسمح لها ان تفهم ان السبب الاساسي لما تشكو منه من الانحطاط انما هو فقر مناهجها التعليمية . ولن يحتاج قراء هذا الكتاب الى ان يلموا بكثير من صحفه ليفهموا هذه المناهج وما يمكن ان تحدث من اثر وليروا انها واحدة في جميع فروع التعليم العالي والثاني والاول . المنهج واحد سواء في ذلك قسم من أقسام الجامعة او مدرسة المعلمين او مدرسة الهندسة او مدرسة من مدارس الزراعة او مدرسة اولية . يمكن ان تغير البرامج كما يقع ذلك في كل يوم ولكن هذا التغيير لا يمس منهج التعليم فلا يمس نتيجته . بل قد انحطت هذه النتيجة انحطاطاً فاحشاً عما كانت منذ ثلاثين سنة . ذلك انهم فكروا في اصلاح التعليم بتغيير البرامج وتعقيدها . فاذا أردت ان تعرف ما يمتاز به تعليمنا في جميع درجاته فهو التعقيد والتكلف البيزنطي وازدراء الحقيقة الواقعة . ويكفي ان تقارن بين الكتب المدرسية اليوم والكتب المدرسية القديمة لتعرف بأي سرعة قوي هذا الميل . ذلك ان مؤلفي هذه الكتب يعلمون اي نوع من الكتب يجب أن يؤلفوا ليرضوا زعماء الجامعة الذين يملكون تقديمهم وتأخيرهم فلا يكتبون الا ما يرضيهم . فالاستاذ الذي ينشر الآن كتاباً على نحو هذا الكتاب المتقن الذي نشره تندال في الضوء والصوت والحرارة يفقد أن قيمة ويمضي حياته خاملا في مدرسة من مدارس الاقاليم

ماتذة لا شك فيه ان التلميذ لا يفهم شيئاً من هذه السخافات التي تلقى اليه بجاعة او الادب . فهو يستظهر منها نتفاً يعد بها الامتحان . فاذا مضت عيهم دم شهر ذهبت هذه المحفوظات كأن لم تكن . فقد اظهر مسيو ليبمان للجنة كالطبيعة ـ ويجب تصديقه لان مسيو دربو قد أيد أقواله ـ ان اكثر الحائزين وكـ الثانوية يعجزون بعد مضي أشهر على الامتحان ان يحلوا مسألة (١) . وقد اضطرت الجامعة الى ان تنشىء في السربون درساً خصاً الثانوية ب الاولي لحملة الشهادة الثانوية العلمية الذين يريدون ان يحصلوا على نتيجة ـ

شهادة علوم الطبيعة والمواليد الثلاثة

لا يبقى في نفس الشباب الذي مر بالمدارس الثانوية من كل هذه الكتب التي استظهرت بمشقة وعناء الا سخط شديد على الدرس وازدراء عميق لكل ما هو علمي . بذلك ينبئنا الاستاذ ليبمان أيضاً فيقول : « ان العقل العلمي أقل شيوعاً في فرنسا منه في أي بلد من بلاد اوربا . أقل شيوعاً منه في امريكا واليابان . وقد أحست الصناعة الاهلية اضرار هذا الجهل احساساً شديداً كما ظهرت اضراره في غير الصناعة . ما سبب هذا الشر ؟ يجب ان نتهم تعليمنا العام الذي لا يعرف من التربية الا تربية العهد القديم »

كل هذا حق . ولكنا نكرر ان الصينيين والبيروقراطيين ليسوا مصدر البلاء . فالجامعة في هذه الأيام تستمتع بحرية مطلقة . والسلطة العامة لا ترد لها طلباً وهي تغدق عليها الاموال . ثم هي تغير دائماً براجها دون أن تمس مناهجها بشيء من التغيير . ومع ذلك فيجب عليها أن تعكس فتغير المناهج دون البرامج وستظل نتيجة التعليم سيئة ما دامت الجامعة لا تفهم هذا

فليس من سبيل الى احياء الجيف . اذن فلا أمل في أن ترضى الجامعة بهذا التغيير . بل اذا أرادت أن تغير مناهجها على بعد هذا وتعسره فاين تجد الاساتذة القادرين على تحقيق هذا الاصلاح وهل يمكن ان تأمل ان أساتذة الجامعة يرضون أن يستأنفوا تربية انفسهم من جديد ؟

فقد يدلك ما سنذكره على أن من العسير جداً ان نجد اساتذة يعلمون طلابنا كما يتعلم الطلاب في البلاد المجاورة

لما وكل الى الاستاذ استوفيه منذ سنين ادارة مدرسة التلغراف التي لم تكن انتجت الى ذلك الوقت الا أسوأ النتائج وأردأها حاول عبثاً اقناع الاساتذة بتغيير مناهجهم التعليمية . فلما رأى ان جهوده كلها عقيمة اضطر الى تغيير الاساتذة أنفسهم . وان كان هؤلاء الاساتذة من خيرة الاساتذة المعروفين وفيهم استاذ في مدرسة الهندسة . استبدل تسعة من ثلاثة عشر . ولكن الصعوبة كانت عظيمة جداً في وجود من يخالفهم ويصطنع في التعليم مناهج منتجة حتى تساءل مدير المدرسة ألا يجب أن يلتمس هؤلاء الاساتذة في البلاد الاجنبية . والنصيحة الوحيدة التي يمكن تقديمها الى الأسر الغنية انما هي ارسال ابنائهم

للدرس في المانيا او سويسرا او أمريكا . ومن المؤلم جداً أن نلاحظ اننا برغم هذه المئات من الملايين التي انفقناها على التعليم لا نزال بحيث نحن من الانحطاط

٤

ان لدينا اساتذة في المدارس الثانوية اذكياء برغم انحطاط التعليم العالي الذي تلقوه ولكن ضعفهم عن الاصلاح كامل لا يحتاج الى مزيد . فهم يصطنعون مناهج التعليم التي خضعوا لها ويتبعون برامج لا يستطيعون ان يتجاوزوها

ولقد افضى اليّ بعض الاساتذة بذات انفسهم بعد ان نشرت الطبعات الاولى من هذا الكتاب . فاذا شكاتهم قد دلتني دلالة واضحة على ان كثيراً من اساتذتنا يشعرون بضعف مناهج التعليم في الجامعة ويعلمون حق العلم ان التلاميذ يضيعون ثمانية او عشرة اعوام في المدارس الثانوية دون طائل . ولكنهم مكرهون على ان ينفذوا بالدقة امر الرؤساء فهم لا يستطيعون تغييراً

التربية بمعناها العام تشمل التعليم وتكوين الملكات الخلقية والعقلية . فاما التربية الخلقية فلا تعنى بها الجامعة بوجه ما . فاما الملكات العقلية فلا تعنى منها الا بواحدة هي الذاكرة . فاما الحكم والتفكير وفن الملاحظة ومناهج البحث . . . فمهملة اهمالا تاماً لانها لا تلاحظ في الامتحان

كل التعليم الثانوي ينحصر في الكتب المدرسية والامالي المدرسية التي يجب أن يستظهرها الطلاب ويتلوها عن ظهر غيب . ولقد قال لي احد الاساتذة في مدرسة ثانوية كبيرة : « لقد اقدمت على عمل خطير يحتاج الى شجاعة عظيمة لأني علمت تلاميذي علم النبات بواسطة تشريح النباتات امام اعينهم دون ان اكتفي باملاء الالفاظ والاصطلاحات » . وكل العلوم الاخرى كالطبيعة والكيمياء وما اليها انما تدرس بهذه الطريقة طريقة الاستظهار[1]

وكل ما تنزلت اليه الجامعة من المناهج التجريبية هو اظهار بعض الآلات

(١) لا تتجاوز او من الجامعة ان تأذن بشيء من الدروس العملية في علم الطبيعة بالمدارس الثانوية . ولكن يتبين لاستاذ مرميه (في المجلة العلمية شهر اكتوبر سنة ١٩٠٩) ان النتيجة سيئة جدا لان الاساتذة والآباء والتلاميذ يزدرون كل شيء الا الكتب التي يحفظ ويعد في الامتحان ويرون العناية بغيره مضيعة للوقت

من بعيد للطلبة واستخدام هذه الآلات استخداماً نادراً جداً مع ان الجامعة لا تنفك ترغب في المناهج التجريبية وتحث عليها وان كانت في الحقيقة تزدريها . وسترى في هذا الكتاب ان تعليم الآداب واللغات والتاريخ ليس اقل سوءاً من تعليم العلوم

بهذه المناهج الخاطئة قتلت الجامعة في فرنسا قتلاً نهائياً ذوق الدرس العلمي الصحيح والبحث المستقل . يستظهر التلميذ صابراً هذه الكتب الثقال التي يعيدها فيفتح امامه كل باب حتى باب الاستاذية ولكنه لا يستطيع ان يقوم بأي عمل شخصي . وقد انطفأ في نفسه كل استعداد للبحث او الابتكار . لا تنقصنا المعامل – بل لدينا منها اكثر مما ينبغي – ولكن غرفها تظل في اكثر الاحيان خالية

فاذا اختلف الطلبة في اوقات متباعدة الى هذه المعامل التي تكلف ولا تفيد ليستعدوا فيها للاستاذية فكن واثقاً ان الطالب منهم انما يزورها لاول مرة وآخرها . على ان الجامعة لا تسمح للاساتذة بأي استقلال وابتكار . فاذا ظهر عند احدهم ميل ولو قليل الى الشذوذ قمعته في الحال مراقبة بيزنطية شديدة . لقد كنا خاضعين لترتيب شديد بحكم هذه القرون التي مضت في الملكية والكاثوليكية . ولكن الجامعة رتبتنا ترتيباً اشد جداً . فهي التي تعلم ارقى طبقات الجماعة وتمسك بيدها مفاتيح الاعمال جميعاً . فمن لم يدخلها فلن يصل الى شيء

كان في فرنسا قبل انتشار نظام الجامعة علماء مستقلون شرفوا بلادهم ورفعوا من شأنها . وقليل جداً أولئك الباحثون غير الرسميين الذين هم بقية أولئك الذين مضوا من قبل ولكنهم قد القوا السلاح وانصرفوا عن الجهاد لان المعونة تنقصهم ولان جيش الجامعة يأخذ عليهم الطريق . ولن يكون من اليسير تعويضهم

٥

نجد في فرنسا آلافاً من الناس يشعرون بنقص التعليم . ولكني لا أثق بانك تستطيع ان تجد عشرة قادرين على ان يضعوا للاصلاح برنامجاً صحيحاً نافعاً لم يظهروا منذ سنين حين فكر في الاصلاح بعد ما أظهره التحقيق

البرلماني من فساد التعليم . وقد انتهت هذه المحاولة كما تعلم الى تقسيم العلوم الى أقسام مختلفة وكان هذا النظام الجديد أسوأ من النظام القديم رغم ما كان عليه هذا النظام من الرداءة

ولقد كتب وزير قديم وعضو بالاكاديمي الفرنسية يقول : « لقد كفت أعوام قليلة لاظهار ما في نظام التقسيم الدراسي من فساد . وكانت هذه الاعوام الخمسة كافية لاظهار ان التعليم الثانوي الذي هو بقية من النظام القديم غير ملائم لهذا العصر الذي نعيش فيه . يجب ان نذعن للحقيقة الواقعة . فقد انتهى عصر الالفاظ . ولم تبق التربية اللفظية صالحة للحياة . لقد جعلوا أجيالنا الحاضرة شعباً من التلاميذ وطلاب الشهادات . جعلوها حيوانات تستبق . وأصبح ما يسمونه رقياً عقلياً واجتماعياً ينحصر في اعادة الفاظ بعينها الى سن الثلاثين وفوق الثلاثين . وأصبحت القوة الوطنية ضائعة في هذه الالفاظ العتيقة غير النافعة : الاستظهار ، والاستنساخ ، والاعادة »

لقد أظهر الكاتب ككثير غيره موضع الداء ولكنه مع الاسف لم يدل على الدواء . هذا العجز عن استكشاف الدواء لعلة يحسها كل واحد منا نتيجة من نتائج الوراثة التي تسيطر على حياتنا . فهناك أشياء لم تفهمها الشعوب اللاتينية قط ويظهر انها لن تفهمها ابداً

ولكن امماً أخرى قد ورثت خصالاً غير خصالنا فاحسنت فهم ما لم نفهمه. فمن البدهي مثلا ان الامريكيين عرفوا كيف يحلون مسألة التربية. واليابانيون الذين لم يكن لهم ماض يعوقهم قد اتخذوا المناهج الانكليزية لانفسهم صفقة واحدة والناس جميعاً يعلمون الى أي حد من الرقي العلمي والصناعي والعسكري قد اوصلتهم هذه المناهج في اربعين سنة

واذا كان القارىء يريد ان يتعرف غور الهوة التي تفصل بين تصورنا وتصور غيرنا للتربية فليقرأ بعض الخطب التي تناولت التربية [1] منذ عهد قريب في انجلترا . وليقارن بينها وبين خطب رجال الجامعة عندنا تلك التي أشرنا اليها ونقلنا طرفاً منها في أول هذا الفصل . واما آسف لاني لا استطيع

(١) القاها المستر اسكويث وزير المالية . والمستر هلدن وزير الحربية . والمستر ليتلتن مدير كلية ايتون . ويوجد ملخصها في الصحيفة الانجليزية « تيتور »

ان اورد من هذه الخطب الانجليزية الا طرفاً شديد الايجاز :

« ليس هناك شيء يجب ان تتوقاه الجامعة اشد مما تتوقى هذا العلم الواسع الذي يمس كل شيء دون ان يتعمق في شيء . فانا نستطيع ان نحكم على الجامعة اذا رأينا طريقتها في تنمية نفسية الطلبة وميلهم الى العلم »

وبعد ان حدث مدير كلية ايتون على توخي المناهج التجريبية قال : « فائدة هذه المناهج انها تستخدم استخداماً مضطرداً العقل والصبر والدقة وحسن التحديق ثم أنفع ملكات الخيال » .

وقد اختصر هذه الخطب مدير المجلة التي نشرتها فقال : « اذا كان منهج التعليم صحيحاً فليس يعنينا الموضوع الذي يلقى على الطلبة . فقد أجمع الناس الآن على مقت التعليم القديم الذي كان يشحن الذاكرة بالالفاظ والجمل الادبية والعلمية »

٦

ومما لا خير فيه أن أطيل اكثر من هذا في مسائل سندرسها درساً مفصلا في هذا الكتاب . فسنرى ان كل ما عرض عندنا من طرائق الاصلاح عبث لا نفع فيه . فلن يفيد تغيير البرنامج ولا الغاء الشهادة الثانوية بل ستظل النتيجة واحدة اذا لم نسلك الى الاصلاح سبيله الصحيح

ستظل النتيجة واحدة لما كررته من ان المناهج لم تتغير . وليس من الممكن ان تطلب الى اساتذة خضعوا لتربية خاصة ان يغيروا مزاجهم العقلي . فهم كما كونهم التعليم العالي

واذن فيجب ان يتغير التعليم العالي . ولكن كيف التفكير في هذا التغيير والمشرفون على هذا التعليم ليسوا هم البيروقراطيين كما يريد ان يوهمنا عضو الاكاديمي الذي اشرت اليه آنفاً وانما هم رجال الجامعة ؟ وكل ما يكتب او يقال في التعليم فليس له الا قيمة فلسفية . فالاصلاح النافع حقاً في التعليم العالي مستحيل استحالة مطلقة في فرنسا . فقد يجب ان يكون هذا التعليم حراً حرية مطلقة . وان تلغى ثلاثة ارباع النفقات المخصصة لكراسي التعليم العالي في الجامعة . على ان يسمح للاساتذة كما هي العادة في المانيا بان يتقاضوا اجوراً من

تلاميذهم . ذلك لن الجامعات الالمانية انما تصل بواسطة التعليم الحر الذي يمكن الاساتذة من اظهار كفايتهم البيداجوجية الى الاساتذة الا كفاء حقاً . فقد يظهر بدهياً — فيما اعتقد — ان الاساتذة والمحضرين في الجامعة اذا تقاضوا اجورهم من الطلبة واستطاع الاساتذة الاحرار ان يعلموا فيها فسيكون هنالك تزاحم يكره الاساتذة القائمين الآن على ان يغيروا مناهجهم التعليمية . فيوجدوا الصلة بين الطلبة والحقائق الواقعة . بدلا من تحويل العلم الى كتب وصور وجمل . هنالك — وهنالك ليس غير — يعلم اساتذتنا ان سر التربية هو في الانتقال من المركب الى المجرد كما هي قاعدة العقل الانساني لا كما يفعلون هم فيسلكون طريقاً مضادة

ومن الواضح ان البرلمان الفرنسي لن يستطيع بحجة الديمقراطيسة ان يقرر مثل هذه القواعد . ومع ذلك فايهما انفع : تعليم يكلف التلاميذ قليلا ولكنه لا يفيدهم شيئاً ام تعليم يكلفهم كثيراً ولكنه ينفعهم بعض النفع ؟ لقد أظهر المنهج الالماني قيمته . وظهرت قيمة منهجنا أيضاً . فانتج الاول تفوقاً بدهياً لالمانيا في العلم والصناعة . وانتج الثاني انحطاطاً لفرنسا ليس أقل بداهة وهو يزداد في كل يوم

ان عقائدنا الموروثة أثقل وزناً من ان تزول امام الاصلاح الذي نقترحه . فنحن لا نتقدم في سبيل حرية التعليم وانما نسعى الى احتكار الدولة له بواسطة الجامعة التي تمثلها . فالدولة الآن في فرنسا هي القوة الالهية التي يجلها الناس في جميع الاحزاب . فليس هناك حزب من الاحزاب الا طلب الى الدولة في كل يوم أن تصطنع لنا السلاسل والاغلال

اذن فيجب علينا أن نذعن للجامعة . فستظل معملا عظيما يخرج العاطلين والساقطين والثائرين حتى يأتي اليوم — وهو بعيد — الذي يفهم فيه الجمهور مقدار ما أحدثت من الضرر وجرت من الانحطاط فيتحول عنها تحولا لا عودة بعده او يهدمها دون اشفاق

واختم هذا الفصل بهذه الجملة التي ختمت بها بحثاً كتبته منذ عشرين سنة عما يمكن ان يقوم به التعليم من النفع . فهذه الجملة حق الآن كما كانت حقاً منذ عشرين سنة . وكما ستظل حقاً في الراجح بعد خمسين سنة :

« تكاد تكون التربية الوسيلة الوحيدة التي يملكها الانسان لتحقيق التطور الاجتماعي وقد أظهرت التجارب التي قامت بها بلاد كثيرة مقدار ما يمكن ان تنتج التربية من النتائج . واذن فلسنا نستطيع الا ان نرى مع الحزب الشديد هذه الوسيلة الوحيدة التي تسمح بترقيـة جنسيتنا حين ترقي ذكاءنا وأخلاقنا لا تنتج الا اضعاف الذكاء وافساد الاخلاق . ومع ذلك فهذه الجامعة الفانية ما تزال قائمة طلل من اطلال الماضي القديم السيء سجن الطفولة والشباب . لست من الذين يؤثرون الهدم . ولـكني حين أرى ما أحـدثت الجامعة من شر وأقيسه الى ما كان يمكن أن تحدث من خير . حين أفكر في هذه السنين الغر سني الشباب التي نصيعها عبثاً وفي هذا الذكاء الذي يخبو وفي هذه الاخلاق التي تنحط أبداً . اذكر هذه اللعنات التي كان يستنزلـها كاتو القديم على عدوة روما وأعيد تلك الجملة التي كان يكررها دائماً : لا بد من تخريب قرطاجنة »

الفصل الثاني

مصادر بسيكولوجية أظهرها التحقيق في امر التعليم

لماذا كان الاصلاح مستحيلا

١

كان التحقيق البرلماني الذي نشر منذ أعوام في اصلاح التعليم الثانوي اكمل مصدر يمكن أن يرجع اليه في حال هذا التعليم الحاضرة وفي نتائجه . فالباحث النفسي الذي يريد أن يعرف الآراء السائدة في فرنسا بشأن هذا التعليم ملزم أن يرجع الى هذه المجلدات الستة الضخمة التي تشتمل على التقارير التي قدمها من استشير من رجال التعليم وغيرهم . فاساتذة الجامعة والمدارس الدينية والعلماء والادباء وأعضاء مجالس الاقاليم ورؤساء الغرف التجارية وغيرهم كل أولئك قد بسط في هذا التحقيق آراءه واقتراحاته في الاصلاح بحرية كاملة

فاذا قرأت هذه المجلدات وقفت لا على الاصلاح الذي يجب اتخاذه ولكن على الحال النفسية للذين قدموا هذه الاقتراحات . فكلهم من طبقة المفكرين الذين يدعون دائماً بالطبقة الحاكمة

في كل صفحة من صفحات هذا التحقيق تظهر ضلالنا وعمونا . وقد يحتاج أمهر الباحثين في علم النفس الى أعوام طوال ليعلم ماذا يمكن ان تنتج له هذه المجلدات من النتائج العلمية

ومع أن هؤلاء المفكرين يدورون دائماً في دائرة ليس للنفوس اللاتينية أن تتجاوزها فان مشروعات الاصلاح التي عرضوها قد كادت تتجاوز العد . ومع ذلك فليس من هذه المشروعات واحد استطاع أن يظفر بالموافقة العامة . فكثير من الاشخاص الممتازين استطاعوا أن يؤيدوا بنفس الادلة المعينة مشروعات متناقضة . فبعضهم يقترح الغاء تعليم اللاتينية واليونانية . وآخرون يعتقدون ان اصلاح التعليم لن يتم الا اذا أتقن درس هاتين اللغتين ولا سيما اللغة اللاتينية ويؤكدون ان « الاتصال بالعقل اللاتيني يلهمنا آراء عامة

شاملة » . ولكن علماء نابهين يعلنون انهم لم يستطيعوا قط أن يفهموا معنى هذه « الآراء العامة الشاملة » التي لم يوفق أحد قط الى تعريفها ويلحون في الاقتصار على درس العلوم . فيجيبهم علماء ليسوا أقل منهم خطراً بأن هـذا التعليم الذي يقترح اذا نفذ كان خليقاً أن يغمسنا في بربرية عقلية غليظة . كل يطلب أن تنسف البرامج نصراً لاقتراحاته الخاصة

ولكن اذا كان الذين اشتركوا في هـذا التحقيق قد أجمعوا على وجوب تغيير البرامج فليس منهم من فكر في تغيير المناهج التي تدرس بها هذه البرامج وما تشتمل عليه

ولقد كان يظهر أن هذا الموضوع أساسي ولكن أحداً من الاساتذة الذين تكلموا أمام لجنة التحقيق لم يعرض له . كلهم يؤمن ايماناً قوياً جداً بما للبرامج من المزايا وليس منهم من يؤمن بقوة المناهج . ذلك انهم قد نشأوا متأثرين بالمناهج القديمة فهم لا يستطيعون أن يتصوروا امكان استكشاف مناهج جديدة .

وأخص ما دهشت له حين قرأت هذه المجلدات الستة الضخمة هو هـذا الجهل التام الذي يحيط بعلمائنا النابهين ، جهلهم المبادىء الأساسية النفسية التي يجب أن يقوم عليها التعليم والتربية . لا تنقصهم في ذلك الآراء الاساسية . فلهم رأي قد بلغ من الانتشار والبداهة في أنفسهم أن أصبح من المستحيل أن يناقش

هذا الرأي الأساسي الذي يقوم عليه التعليم في جامعتنا هو : ان الذاكرة وحدها هي الطريق التي تسلكها المعلومات الى عقولنا لتستقر فيها . واذن فيجب أن يعتمد على ذاكرة الطفل وحدها لتربيته وتعليمه . ومن هنا كانت أهمية البرامج المتقنة التي تنتج الكتب المدرسية المتقنة . فاساس التعليم يجب أن يكون استظهار الكتب والدروس

مثل هذا التصور يمثل أشد الاغلاط الأساسية للجامعة خطراً وشراً . ومن استمرار هذا الخطأ في الشعوب اللاتينية نتج انحطاطهم الذي لا شك فيه فيما يتصل بالتربية والتعليم

سيدهش علماء النفس في المستقبل حين يرون أن جماعة ضخمة من العلماء

والمجربين قد اجتمعت للتشاور في اصلاح التعليم فلم يخطر لواحد منها أن يلقي هذه المسألة : بأي طريق تصل المعلومات الى العقل ؟ وبأي وسيلة تثبت فيه ؟ وماذا يبقى من هـذه المعلومات التي لا تصل الى العقل الا بواسطة الذاكرة ؟ فهل متاع الذاكرة قادر على البقاء ؟

الجواب على هذه المسألة الاخيرة يجب أن يكون واضحاً منذ زمن طويل. فاذا كان قد بقي فيه شيء من الشك فان مجلدات التحقيق كفيلة بازالته . فان تقريرات الاساتذة الذين هم اشد الناس اختصاصاً في الامر مجمعة على أن شيئاً مما حفظ التلاميذ لا يبقى في نفوسهم بعد أن تمضي أشهر على الامتحان . وقد أثبتت التجربة أن المعلومات التي تصل الى العقل بواسطة الذاكرة لا تثبت فيه الا قليلا

اذن فليس من شك في أن المناهج الأساسية للتعليم في الجامعة سيئة . ويجب البحث عن مناهج اخرى . ولقد كان كتاب التحقيق يؤدون الى بلدهم أعظم خدمة لو انهم وضعوا البحث العلمي عن هذه المناهج موضع مناقشتهم البيزنطية في البرامج وما يتصل بها . واذ لم يفعلوا ذلك فلنحاول نحن فعله في هـذا الكتاب . وسنظهر ان التربية ليست الا الفن الذي يمكن من تحويل الشعوري الى اللاشعوري . وانما سبيل ذلك ايجاد الحركة اللاارادية التي ينشأ عنها تشابه الخواطر المتكرر الذي ليس للذاكرة فيه الا أثر قليل . فالمربي الماهر يستطيع أن يوجد الحركة اللاارادية النافعة ويقضي على التي لا تنفع او على التي تضر

فكل التعليم خاضع لمبادىء نفسية قليلة سهلة . فاذا أمكن فهم هـذه المبادىء كانت مناراً يهتدى به في أحرج المواقف وأشدها ضيقاً . هذه المبادىء التي يحسها المربون الأجانب احساساً غريزياً مجهولة في فرنسا جهلا بلغ من الشدة أن أصبحت الجمل التي تدل عليها كأنها جمل لا تشتمل الا على المتناقضات

٢

اذن فكل ما اشتمل عليه التحقيق من بحث لم يتناول الا اصلاح البرامج . ومع ذلك فقد غيرت هذه البرامج التعسة التي يظن انها أصل الشر كله قبل أن

تظهر نتيجة التحقيق . ولقد اشتملت الأربعون عاماً الأخيرة على تغييرات لنظام التعليم الموروث عندنا تكررت ست مرات . ومع ذلك فان فشل هذه المحاولة لم يرشد أحداً الى انها غير نافعة

ان اضافة هذه القوة العجيبة الى البرامج مظهر من مظاهر هذه الاغلاط التي اختص بها الجنس اللاتيني والتي ليس الى شفائها سبيل والتي كلفتنا كثيراً منذ قرن مضى فنحن نعتقد ان اصلاح الاشياء يمكن أن يتحقق باصدار الاوامر واتخاذ القرارات دون ملاحظة الظروف والأطوار . هـذا المبدأ عام يتناول السياسية والاستعمار والتربية . وقد اتخذناه دائماً فكان فشلنا فيه يعدل حرصنا عليه . كذلك كانت الدساتير المختلفة التي وضعت لتكفل لنا السعادة . كانت كثيرة غير نافعة كما كانت البرامج التي وضعت لتكفل لنا التربية الحسنة . كأن هذه الامم اللاتينية لا تستطيع أن تثبت الا على الاحتفاظ بخطئها

لم يتفق الذين أبدوا آراءهم في التحقيق الا على شيء واحد هو نتيجة التربية والتعليم في الجامعة . فقد أجمعوا اجماعاً يوشك أن يكون تاماً على أن هذه النتيجة سيئة ، بغيضة . ذلك ان آثار التعليم ظاهرة فلم يكن بد من أن يقف عليها كل باحث . أما الأسباب فخفية ليس من السهل استكشافها ومن هنا لم يصل اليها الباحثون

كل الذين تكلموا امام المحققين انما فكروا على الطريقة القديمة التي يمتاز بها الجنس اللاتيني والتي أظهرت في غير هذا المكان انها أقوى من أن تقاوم . ولم يكن بد من الجهل الذي ينتج عن مثل هـذا التفكير ليغفل هؤلاء الناس عن ان البرامج ليس لها أثر في هذه النتيجة السيئة . فان برامج مشابهة لها في المانيا مثلا تنتج نتيجة اخرى

خرجت جامعتنا العتيقة واهنة من هذا التحقيق . فقد فقدت المدافعين عنها حتى الاساتذة الذين انشأتهم بطرائقها . فان اختلافهم الشديد في كل مسائل التعليم . وقصور ما عرضوا من طرق الاصلاح ، والاصرار المتصل على تغيير البرامج ، كل ذلك يدل دلالة واضحة على اننا لا ينبغي ان ننتظر من الجامعة نفعاً . فهي كالسفينة المعطلة تعبث بها الامواج والرياح . فهي لا تعلم ماذا تريد ولا تعلم ماذا تستطيع . وهي تدور في ضروب من الاصلاح الكلامي دون أن تفهم

ان طرائقها وروحها قد بليت يبلى عظيما واصبحت لا تلائم اي فرع من فروع الحياة في هذا الجيل . فهي لا تتقدم خطوة حتى تتأخر خطوات . فهي تقرر في يوم الغاء درس الشعر اللاتيني ثم تصبح فتضع مكانه درس العروض اللاتيني . ولقد استحدثت الجامعة تعليما تسميه التعليم الحديث ألغت فيه درس اللاتينية واليونانية ووضعت مكانهما درس اللغات الحية ولكنها تدرس هذه اللغات الحية كما تدرس اللغات الميتة غير معنية الا باسرار الادب ودقائق النحو حتى ان الطالب ليدرس فيها سبع سنين ثم لا يستطيع ان يقرأ ثلاثة اسطر دون ان يلجأ الى القاموس فيبحث فيه عن كل كلمة . يخيل اليها انها تدخل اصلاحاً عظيما على التعليم اذا الغت شهادة الدراسة الثانوية ولكنها تخلق مكان هذه الشهادة شهادة أخرى لا تخالف الاولى الا في انها تسمى شهادة الدراسة . كل اصلاح ممكن في الجامعة ينحصر في أن توضع كلمات مكان اخرى . لقد وصلت الجامعة من اطوار الفناء الى هذا الطور الذي يسبق الموت والذي يعجز الشيخ فيه عن أن يتغير

هنالك شيء لا تراه الجامعة مع الاسف . لم تره لجنة التحقيق لانه يتجاوز حدود الآراء اللاتينية التي اشرت اليها آنفاً وهو ان الذي يجب تغييره انما هي مناهج التعليم التي تدرس بها المواد التي اشتملت عليها البرامج

ذلك ان هذه المناهج القديمة عقيمة بغيضة الى النفوس . شعر بذلك مفكرون ممتازون مثل « تين » وأعلنوا آراءهم فيه متشددين . فقد أظهر هذا المؤرخ النابه في احد كتبه الاخيرة ان جامعتنا ليست الا نكبة من النكبات وانها تقودنا في رفق الى الانحطاط . ولم ير الجمهور في ذلك الا تهكم فيلسوف . ولكن التحقيق أظهر ان هذا التهكم لم يكن الا حقيقة مؤلمة

ولئن عجز أكثر الباحثين عن اسباب انحطاط التعليم فان رداءة هذا التعليم كانت ظاهرة قبل التحقيق . فمنذ أعوام كثيرة كان الاستاذ هنري دفيل يقول في جلسة علنية من جلسات المجمع العلمي : « انا أحد أعضاء الجامعة منذ زمن طويل وسأحال قريباً الى المعاش ومع ذلك فانا أعلن بكل صراحة ما أعتقد وهو ان الجامعة على نظامها الحاضر تسوقنا الى الجهل الذي ليس فوقه جهل »

وفي نفس هذه الجلسة كان أستاذ الكيمياء المعروف دوماس يشير الى انه « قد ظهر منذ زمن طويل ان نظام التعليم اذا لم يتغير كان شراً على هذا البلد منتهياً به الى الانحطاط »

ولكن ما بال هذه الاحكام القاسية التي تصدر عن علماء نابهين لا تنتج الا تغيير البرامج ؟ ما الاسباب الخفية التي تمنع تحقيق كل اصلاح نافع ؟

٣

من اليسير أن ترى عيوب أي نظام من النظم العامة سواء أكان نظاماً سياسياً أم نظاماً من نظم التعليم . من اليسير أن ترى هـذه العيوب وأن تدل عليها . فان النقد السلبي يقع في متناول الاذكياء العاديين . ولكن هؤلاء الاذكياء لا يستطيعون أن يتبينوا ما يمكن تغييره مع ملاحظة المؤثرات المختلفة كالجنسية والبيئة وغيرها ، تلك المؤثرات التي تعتمد عليها هـذه الاشياء المستحدثة . ذلك ان الشعور بمعنى الامكان وتقديره خصلة حرمتها شعوب كثيرة اخصها الشعب الفرنسي

فاذا امتحنت ما عرضه بعض الذين استسيروا في التحقيق من اصلاح اساسي عرفت انه يخلو لا من كل قيمة نظرية فحسب . بل من كل ما يسمح بامكان تحقيقه . يخلو من كل ذلك لاسباب سنبينها . واهم هذه الاسباب انه أن تحقق صدم رأياً عاماً قوياً جداً في هذه الايام . ان التعليم عندنا ومناهج التعليم على الاخص قد بلغت أشد ما يمكن أن تبلغ من السوء ولكنها تلائم أهواء الرأي العام الذي عملت هي في تكوينه . وان نظرة موجزة تلقيها على ما عرض من طرق الاصلاح لتبين لك السبب في أن تحقيقه غير ميسور

فقد عرض بعضهم مثلاً أن نسلك مسلك الانجليز فننقل المدارس الثانوية الى خارج المدن لنمنح التلاميذ من الهواء والفضاء ما هم في حاجة اليـه للعب والتمرين . فقد يظهر هذا الاصلاح حسناً جداً ولكن الاحصاء يدل على ان المدارس الثانوية العليلة التي انشئت خارج المدن وانفقت عليها النفقات الضخمة ووفرت فيها اسباب الدعة والترف لا تكاد تملأ لأن الأسر تحرص على أن تحتفظ بابنائها فهذا وحده يكفي ليبين لك أن هذا الاصلاح المقترح ليس سهل التحقيق . اذ كيف يمكن اكراه الاسر على أن تغير آراءها في هذا الموضوع ؟

وقد عرض ايضاً أن تستبدل اللاتينية واليونانية اللتين لا نفع لهما بلغات حية نافعة جداً . وقد يكون هذا الاصلاح نافعاً ولكن أين السبيل الى تنفيذه وقد أظهر التحقيق أن الاسر نفسها هي التي تحرص على اللاتينية واليونانية لانها تعتقد فيما أظن ان درسهما يشرف ابناءها ويميزهم من العامة . وكيف تستطيع الدولة أن تنزع من نفوسها مثل هذا الخطأ ؟

ويعرض علينا ايضاً ان نسمح للتلاميذ المسجونين بشيء مما يستمتع به التلاميذ الانجليز من هذه الشخصية وهذا الاستقلال . وليس أحب الينا من ذلك . ولكن كيف نستطيع أن نطلب الى نظار المدارس مثل هذه التجربة ونحن نقرأ في التحقيق ان المحاكم قد أثقلت بعضهم بالغرامات الضخمة لان بعض التلاميذ الذين كلفوا العناية بهم قد جرحوا في العابهم

ومن أشد الاصلاحات التي عرضت سذاجة وان كان قد وجد أنصاراً كثيرين هـذا الاصلاح الذي يقضي بالغاء الشهادة الثانوية . على ان تستبدل بسبع شهادات أو ثمان تنال في آخر كل سنة بعد امتحان يقال له امتحان المرور والغرض من هـذا الاصلاح اعفاء التلاميذ الاغبياء من اضاعة أوقاتهم في المدارس . ذلك اقتراح قد يكون حسناً جداً من الوجهة النظرية ولكن كيف يمكن تحقيقه ! فان الاحصاء الذي أعلنه المسيو بويسون يظهر لنا أن عدد الناجحين في الشهادة الثانوية يكاد يعدل خمسة آلاف في السنة يقابله مثله من الراسبين الذين أضاعوا أوقاتهم في المدارس . وذلك يعطي فكرة سيئة جداً من الاساتذة والبرامج التي توصل الى مثل هذه النتيجة . ولكن أترى الى المدارس الثانوية التي تزاحمها المدارس الدينية مزاحمة شديدة والتي يصيب ميزانياتها العجز في كل سنة ، أترى الى هذه المدارس تخسر خمسة آلاف من تلاميذها في كل سنة . ذلك ان لجان الامتحان تي تجرأ على اخراج مثل هذا العدد من المدارس لتستأثر به المدارس الدينية لا تلبث أن ترى نفسها موضع سخط الامر وضغط السلطة العامة فتميل الى الرفق والتلطف وتقبل كل التلاميذ . ويعود الامر الى ما هو عليه اليوم

هناك مصلحون آخرون يقترحون علينا ان ننسخ التربية الانجليزية لانها من غير نزاع أرقى من تربيتنا بما لها من تأثير في تنمية الخلق واظهار الشخصية

وتقوية الارادة وبما لها من هذه الميزة الخاصة التي يظهر اننا لا نلتفت اليها وهي أخذ النفوس بحب النظام . هذا الاصلاح حسن جداً من الوجهة النظرية ولكنه مستحيل التحقيق . ذلك ان هذا النظام قد وضع لشعب يمتاز بخلال موروثة تلائمه فليس من الممكن ان ينقل الى شعب آخر يمتاز بخصال مناقضة كل المناقضة لتلك الخلال . على ان التجربة لن تستطيع أن تثبت ثلاثة أشهر فلست أعرف اسرة فرنسية تسمح بان يعود ابنها من المدرسة وحده دون ان يرافقه من يأخذ له تذكرة من المحطة ويعينه على ان يركب الامنيبوس ويلفته الى ان يلبس معطفه مخافة البرد ويلاحظه ملاحظة دقيقة حتى لا يسقط تحت عجلات القطار وهو يمشي أو تحت العربات في الشارع . أو ان يصيب عينه بعض الاذى وهو يلاعب أترابه حراً . فلو ان أبناء هذه الاسر الحريصة استمتعوا بما يستمتع به اطفال الانجليز من الحرية فتركوا لانفسهم يؤدون واجبهم متى شاءوا وكيف شاءوا ويلعبون دون مراقبة أشد أنواع اللعب عنفاً وخطراً ، يخرجون كما يشاءون لأجمع الناس على الشكوى . فلا يكاد يقع أول حادث حتى ترتفع أصوات الاسر بالشكوى وتجمع الصحف على السخط والانكار . وما هي الا ان يسأل الوزير في مجلس النواب ويكره على ان يعيد النظام القديم أو يسقط . ولقد عرفت سيدة محترمة أصابتها ازمات عصبية قوية وأنذرت زوجها بالطلاق لانه استمع لنصيحتي حين أشرت عليه بان يرسل ابنه الى المانيا ليمكث فيها أشهراً بعد ان أتم دروسه في فرنسا [١] فجعلت تقول كيف يمكن لاب بر بابنه حدب عليه ان يتركه يسيح وحده في المانيا وهو غر ناشيء لم يتجاوز الثامنة عشرة وقد اضطر الاب الى ان يعدل عن هذه الفكرة

وربما لم تكن هذه السيدة الجليلة مخطئة حين شكت في كفاية ابنها للحياة وحده في سياحة قصيرة . فانه لا يملك هذه الكفاية بوراثة ولا بتعلم فكيف يمكن ان يكتسبها ؟

---

(١) ان صحت هذه الرواية فهذه السيدة نادرة جداً في فرنسا ولعلها مريضة . فنحن نعلم ان الفرنسيين لا يرسلون ابناءهم فحسب الى البلاد الاجنبية للتمرين واتمام الدراسة وانما يرسلون بناتهم ايضاً . وكثيراً ما تسافر الفتاة الفرنسية وهي في السادسة عشرة الى انجلترا والمانيا بل والى امريكا . نعم يحتاط الفرنسيون لابنائهم وبناتهم فينزلونهم في الاسر ولكن هذا الاحتياط لا بأس به ولا سيما من الوجهة الخلقية (المترجم)

وانما لم ... بلاد ... من ... بذلك لان في نفوسهم ميلا قوياً الى النظام ... من ... الناس في الارض شعب يفوقهم في النظام ... العادات المقررة . ومن هنا استغنى الانجليز عن هذه الرقابة ... لان النظام طبيعة من طباعهم . ثم ان تربية رياضية شديدة جداً تقوي في نفوسهم هذا النظام ولا تعصم التلميذ من التعرض لاخطار لن يسمح الاب الفرنسي بان يتعرض لها ابنه . واذن فيجب ان نقتنع بانه مادام الرأي العام الفرنسي كما هو فقليل جداً من نظم التعليم والتربية يمكن تغييره الى ان يتم تطور هذا الرأي العام نفسه

فلنعرض اذن اعراضاً تاماً عن هذه الاقتراحات العظيمة الضخمة . اقتراحات الاصلاح فهي لا تنفع الا لتكون مادة كلام كثير لا نفع فيه . ولنلاحظ ان برامج التعليم عندنا قد غيرت مرات دون ان ينتج تغيير شيئاً . ولنلاحظ بوجه خاص ان الالمانيين مع ان برامجهم لا تخالف برامجنا الا مخالفة قليلة جداً قد استطاعوا ان يحققوا رقياً عظيماً في العلم والصناعة جعلهم في مقدمة الشعوب جميعاً . فلنلاحظ هذه الحقائق ملاحظة جيدة فلعل ذلك يوصلنا الى العلم بان البرامج كلها ليست ذات خطر وانما الامر كل الامر في استخدام هذه البرامج . لا تدل البرامج على شيء وليس لها في نفسها قوة ما فسواء فصلت أم أجملت فكلها تشتمل على ما يأتي : تعليم الشبان مجملات من العلم والادب والتاريخ وشيئاً من اللغات القديمة أو الحديثة . فمناهج التعليم التي لا توصل الى هذه الغاية عقيمة ومهما تغير من البرامج فلن تصل الى شيء دون ان تغير المناهج . فاذا جاء اليوم الذي تفهم فيه هذه الحقيقة عرف الاساتذة ان الذي يجب تغييره انما هي المناهج لا البرامج . وما دامت هذه الحقيقة لم تملأ الرؤوس والافئدة حتى تصبح مصدراً من مصادر العمل فسنظل على ما نحن عليه من خطأ ووهم دون ان يشعر أحد بان التعليم يستطيع ان يكون كلسان ازوب مصدراً للخير كله أو مصدراً للشر كله [1]

واذ كان كل اصلاح أساسي يجب ان يمس المنهج لا البرنامج فليس من شك

---

(١) اذا اردت ان تقدر النتائج السيئة لتعليم لا يوافق حاجة الشعب الذي يتلقاه ولما

في ان اقتراحات الاصلاح التي قدمت الى لجنة التحقيق ليست عظيمة النفع . فهي لا تمثل الا أقوالا معادة وكل ما يمكن ان يقال في البرامج انما هو : انها كلما كانت قصيرة كان نفعها عظيما . لا ينبغي ان يتجاوز البرنامج الكامل للتعليم خمسة وعشرين سطراً ينص بعضها على ان الطالب ليس مكلفاً ان يدرس من كل علم الا أصولا قليلة ولكن يجب ان يدرسها درساً عميقاً

٤

نظن ان القارىء قد بدأ يشعر بهذه المصاعب الخفية التي تعترض اصلاح التعليم ومع ذلك فنحن لم نتعرض بعد لأشد هذه المصاعب عسراً وأطولها بقاء وأعصاها على الاصلاح . نريد نفسية الاساتذة

لم تحفل بها لجنة التحقيق مرة واحدة . ولم تكن تستطيع ان تفعل . ذلك ان الذين تكلموا أمام لجنة التحقيق كانوا مقتنعين بان الاساتذة الذي أفعموا علماً وشهادات لا يمكن ان يكونوا موضوع مناقشة ولا يمكن ان يفكر أحد في اصلاحهم لان يمثلوا الكمال العلمي

ومع ذلك فهذه النقطة التي لم يلتفت اليها هي العقدة الاساسية التي يجب ان تحل ليمكن اصلاح التعليم

لقد نثرت لجنة التحقيق ازهارها على الاساتذة وأشبعت البرامج قدحاً وذماً . ومع ذلك فقد كان يجب العكس . فلنفترض ان قوة ساحرة أزالت مرة واحدة كل تلك العقاب التي لاحظناها آنفاً ورأينا انها تحول دون اصلاح التعليم . فامحت أوهام الاسر وسخافاتها . وتغيرت البرامج والمناهج . أتظن ان كل شيء سيتغير ! كلا . ليس شيء يتغير ولا يمكن ان يتغير شيء !

ولم ؟ لشيء سهل واضح وهو ان نفسية الاساتذة التي كونتها الجامعة ليست ممكنة التغيير . ذلك انهم تكونوا بمقتضى تلك الاصول القديمة فلا يستطيعون ان ينفذوا غيرها بل لا يستطيعون ان يفهموا غيرها . قد وصلوا

يحدث هذا التعليم في ذلك الشعب من اخلال التوازن بين القوى واضعاف الهمم . فانظر الى هذه التجربة العظيمة الواسعة التي قام بها الانجليز في الهند . فقد فصلت نتائج هذه التجربة في خطبة افتتاح لمؤتمر المستعمرات الذي كنت احد رؤسائه سنة ١٨٨٩ . وقد لخصت هذه الخطبة في الطبعة الجديدة لكتابي حضارة الهند . فان نظام التعليم والتربية الذي هو جيد منتج عند الانجليز قد ظهر بغيضاً الى الهنود عند ما اراد الانجليز تنفيذه في بلادهم

جميعاً الى سن لا يمكن ان تستأنف فيها التربية

نعم سيقبلون طائعين كما فعلوا من قبل تغيير البرامج . وسينحنون متواضعين أمام المنشورات الوزارية . ولكنهم سيظلون يعلمون كما كانوا يعلمون من قبل لانهم لا يستطيعون ان يفعلوا غير هذا

وسيظهر ما تنقله من نصوص التحقيق أدلة واضحة على أن من المستحيل ان يغير الاساتذة طرائقهم في التعليم . منذ سنين خطر لاحد وزراء المعارف وهو المسيو ليون بورجوا ان يصلح التعليم وحده وذلك بان ينشيء شهادة ثانوية جديدة يسميها الشهادة الثانوية الحديثة . تكاد تضمن لصاحبها مزايا الشهادة الثانوية القديمة . وبمقتضى برامج هذه الشهادة قامت اللغات الحية مقام اللغات القديمة وقويت دراسة العلوم . كان كل شيء في البرنامج حسناً . فلم يبق الا الاساتذة الذين ينفذونه . ولكن أساتذة الجامعة علموا اللغات الحية كما يعلمون اللغات الميتة غير معنيين الا بدقائق النحو . ودرسوا العلوم بواسطة الكتب الدراسية . وكانت النتيجة كما سنرى سيئة

يجب ان نتصف علم الكتب الذي يؤثره أساتذتنا . فهم قد علموا تلاميذهم كل ما يمكن ان يدرس بواسطة الكتب . ولكن مذهبهم في التربية والتعليم لا قيمة له . وقد أشار بعض الذين تكلموا في التحقيق الى ذلك اشارة خفية مع شيء من الحياء . وانما ظهر خارج التحقيق افراد مستقلون دلوا على مواطن الضعف التي تزداد ظهوراً من يوم الى يوم

على ان ضعف أساتذتنا في طريق التربية والتعليم يدهش بعض الاجانب الذين زاروا معاهدنا العلمية وشهدوا بعض الدروس فيها . فقد نقل مسيو مكس ليكلير بهذه المناسبة مقالا نشرته مجلة التعليم الدولية فيه رأي أستاذ أجنبي زار بعض مدارسنا في باريس والاقاليم . يقول « انه لقي ناساً كثيرين متعلمين حقاً. ولكنه لم يلق الا قليلا جداً من الاساتذة والمربين . قام رجال الادارة في المدارس فقد رآهم غير مستنيرين ورآهم مغرورين حتى ضيقي العقول »

وليس عهدنا بمثل هذا النقد حديثاً . فقد كتب المسيو ريال الاستاذ بكوليج دي فرنس منذ أربعين سنة هذه الاسطر ينقد فيها أساتذتنا :

« كانت جماعة الاساتذة في الجامعة تمثل آراء الامة في سنة ١٨١٠ . فلما

كانت سنة ١٨٤٨ وصلت هذه الجماعة من التأخير الى حيث استطاع كاتب أجنبي ان يقول فيها ما يأتي : «لقد وقفت طبقة الاساتذة في فرنسا عن الحركة حتى أصبح من المستحيل ان تجد طبقة أخرى في هذا الوقت الذي عم فيه الرقي ولا سيما في أشد الامم حركة تستطيع ان تثبت مع هذا الرضا في الطريق المعبدة المألوفة . وتدفع مع هذه الكبرياء وهذا الغرور كل منهج أجنبي وترى الثورة في أقل تغيير»

ما مصدر هذا القصور في التربية . هذا القصور الذي لا ينكر والذي أصاب أساتذتنا ؟ مصدره بكل سذاجة كما قدمت هي هذه المناهج التي كونت عقولهم . فهم يعلمون ما تعلموا . ويعلمونه كما تعلموا

وما قيمة هؤلاء الاساتذة الذين كونتهم مبادىء الجامعة وما نفعهم في تعليم الشباب وتربيته ؟ ما قيمتهم والمبادىء التي كونتهم تنحصر في درس الكتب ليس غير . هؤلاء الاساتذة الذين هم الضحايا التعسة لأسوأ مذهب من مذاهب التعليم عرفه الناس لم يتركوا قط مجالس التلاميذ الا ليرقوا الى مجالس الاساتذة . مجالس التلاميذ في المدارس الثانوية او في مدرسة المعلمين او في أقسام الجامعة . امضوا خمس عشرة سنة من حياتهم يخضعون للامتحانات ويتقدمون الى المسابقة . اما واجباتهم في مدرسة المعلمين فقد كانت معدة اعداداً ضيقاً لكل يوم واجبه . كل شيء يجري طبقاً لنظام مهلك . ولم يكن برنامج الامتحان ليترك ظلا من الحركة لهؤلاء العبيد، عبيد العلم . وقد تكلفت ذاكرتهم جهداً فوق الطاقة الانسانية لتستظهر ما وعته الكتب، آراء الآخرين وعقائد الآخرين واحكام الآخرين . ليس لهم علم بالحياة وتجاربها لانهم لم يتكلفوا قط عملا شخصياً ولا حكماً شخصياً ولا ارادة شخصية . يجهلون الجهل كله هذا المجموع الدقيق الذي تتكون منه نفسية الطفل . يجهلون الطرق التي يصلون بها الى نفوس تلاميذهم . مثلهم في ذلك مثل الفارس الجاهل امتطى فرساً جموحاً . يتلون وهم اساتذة هذه الدروس التي تلوها وهم تلاميذ . ومن اليسير ان يوضع الفونوغراف على كرسيهم فيؤدي عملهم

اضطروا الى ان يدرسوا أشياء معقدة دقيقة ليكونوا اساتذة . وهم يعيدون هذه الاشياء المعقدة الدقيقة امام تلاميذهم

في المانيا حيث لا يوجد هذا النظام الرديء نظام المسابقة تعرف قيمة أساتذة التعليم العالي باعمالهم الشخصية وفوزهم في التعليم الحر الذي يجب أن يبدأوا به . اما في فرنسا فتعرف قيمتهم بمقدار ما يستطيعون أن يتلوا في المسابقة [1]

واذ كان عدد الطلبة ضخماً دائماً وعدد المناصب الخالية نحيفاً دائماً . فقد تبالغ في هذا المعنى ليقل الناجحون . فمن استطاع أن يتلو دون ان يتردد أكثر ما يمكن من الصيغ والعبارات ودل على انه قد خزن في رأسه أعظم مقدار من السخافات وتكلفات العلم والنحو فهو فائز منتصر على خصومه . ولقد لاحظ احد الممتحنين في مسابقة الاستاذية منذ عهد قريب جداً وهو المسيو جوليان، لاحظ في مجلس المعارف الاعلى ان لجنة الامتحان كانت هلعة من هـذا الجهد الذي يطلب الى ذاكرة الطلبة . وهو يرى ان الذاكرة اذا كانت أداة تستحق الاعجاب فهي ليست الاّ أداة يجب أن تسخر لمزايا أخرى يمتاز بها الاستاذ حقاً . وهي النقد والمنطق وحسن المنهاج والقصد وحسن المدخل ونفاذ البصيرة وقوة الحدس وبعد النظر وسعته . وسهولة الالقاء ووضوحه وصحة اللفظ وقوته

ليس من شك في ان هذا الممتحن الجليل قد أصاب فيما لاحظ ولـكن بين الملاحظة وبين العمل بون شاسع وستظل الذاكرة دهراً طويلا ما بقي نظام المسابقة المزية الوحيدة النافعة لمن يتقدم للامتحان . فسيجتنب الطالب ما استطاع كل عمل شخصي حتى ولو ملك الوقت والقدرة عليه . لانه يعلم حقاً أن الممتحنين في جميع درجات الامتحان يمقتون ذلك مقتاً شديداً

فاذا انفق الرجل خمسة عشر عاماً من حياته مكدساً في ذاكرته كل ما يستطيع تكديسه دون أن يلقي نظرة واحدة على العالم الخارجي ، دون أن يمرن مرة واحدة قوته الشخصية أو ارادته أو حكمه فأي خير يمكن أن يرجى منه ؟ لا يرجى منه شيء الا أن يتلو لتلاميذه البائسين بعض ما كان يتلو قديماً .

---

[1] في هذا اسراف كثير جداً . فقد رأينا نظام التعليم والامتحان والمسابقة في جامعات فرنسا ويجب ان نعترف بان ليس من الحق في شيء ان الاساتذة يعتمدون على الاستظهار او يقنعون بالتلاوة وانما هم يوجهون العناية كلها الى الملكات الفعلية التي تفكر وتميز وتحكم . وما يقوله المؤلف هذا ان صح في عصر من العصور هو متوسط القرن الماضي فليس يصح في هذا العصر ولا سيما منذ تحقق الاصلاح الاخير في آخر القرن الماضي (المترجم)

نعم يذكر بين اساتذة الجامعة اشخاص ممتازون استطاعوا أن يفلتوا من هذه المناهج السيئة التي خضعوا لها . كما يذكر أثناء الطاعون بعض الاطباء الذين يفلتون من العدوى . ولكن هؤلاء الاشخاص قليلون جداً ! ! !

ومع ذلك فالجامعة مدينة بحياتها لمكانة هؤلاء الاشخاص الممتازين . ولكنك اذا لاحظت الاساتذة رأيت أن أكثرهم لا يستطيع أن يخلص من شر النظام القديم الذي خضع له . فكم من رأس قوي ذكي ابان الصبا قد أفسده التعليم فاصبح لا يصلح الا لتلاوة الدرس او القيام بالامتحان في أعماق الاقاليم . وهو يثق بان قوته قد فنيت فاصبح لا يقدر على شيء آخر . وكل تسليته انما هي تأليف هذه الكتب التي تسمى كتباً اولية . بحث شاحب يظهر في جميع اجزائه هذا الضعف الشديد وهذا الحرص على ألوان من الدقة غير النافعة تعلمها الجامعة . يخيل الى هؤلاء الناس انهم يدرسون العلم حين يعقدون أسهل المسائل ويردون الى الغموض أشدها وضوحاً . ولقد نشر مسيو فوليه الذي يظهر انه أحسن الدرس لما كتب رفاقه طائفة غريبة جداً من هذه الآداب المدرسية . ومن أغرب هذه الآداب كتاب استاذ خصصه للمدارس الثانوية وقرظته المقامات العلمية العالية . « وقد أعلن المؤلف فيه انه تعمد الغاء الاصطلاحات والمناقشات حتى لا يخيف الكتاب الطلاب الاطفال الذين تنقصهم التجربة . ولهذا يحدثهم عن الشطر ذي الاقدام الخمس الذي يوضع مكانه أحياناً شطر ذو أقدام سبع يصحبه عادة شطر ذو أقدام ثلاث[1] . . . »

وعلى نفس هذه الطريقة تؤلف كتب العلم . وقد استطيع أن أمثل لذلك بكتاب في الطبيعة الفه أحد خريجي الجامعة الحائزين لشهادة الاستاذية وقد كتبه للذين يطلبون الشهادة في العلوم الطبيعية والمواليد الثلاثة . وهؤلاء كما سترى من التحقيق ليس لهم الا معلومات ضئيلة جداً في الرياضة . وقد كلف المؤلف نفسه عناء لا حد له ليملأ صحفه بشروح وتفصيلات لا فائدة فيها . هذا

(١) ليست الترجمة قادرة على ان تعطي في العربية صورة حقيقية من الاصل لانه يورد اصطلاحات من العروض مقتبس اكثرها من اليونانية وليس لها مقابل في اللغة العربية بل ولا في الفرنسية نفسها . ولهذا أعرضنا عن بقية هذه الاصطلاحات اشفاقاً على وقتنا ووقت القارىء من الضياع في غير فائدة (المترجم)

الاستاذ واثق بان واحداً في الالف من التلاميذ يستطيع أن يفهم هذه الصيغ الغامضة ولكن ماذا يعنيه من ذلك . فلما تغيرت البرامج ازدادت كتب التعليم تعقيداً حتى أصبحت لا تقرأ . ولقد أظهر المسيو بروكر الاستاذ بمدرسة مرسايل الثانوية في مقالة نشرتها مجلة التعليم الثانوي ١٥ يونيو سنة ١٩٠٤ هذه الثرثرة غير النافعة التي تمتلىء بها الكتب التعليمية في المواليد الثلاثة وهو يضرب لذلك أمثالا محزنة نروى لك واحداً منها لا نختاره وانما نأخذه بطريق المصادفة قال : « هناك مؤلف آخر ذهب في ذلك مذهباً بعيداً جداً . فاصبح تعقيد لفظه وليس له مثيل . فهو يختار الالفاظ الغريبة العسيرة للمعاني السهلة التي يعرفها كل الناس »

فاذا كان أساتذتنا لا يلقون الى الطلبة الا تعلما رديئاً فمصدر ذلك كما قلت انهم يعلمون ما تعلموا في الجامعة وبنفس الطريقة التي تعلموا بها . وما دام اساتذة الجامعة يتخيرون بالطريقة التي يتخيرون بها الآن فلا سبيل الى اصلاح شيء في تعليم الجامعة

ومن اهم الاسباب التي جعلت التعليم الالماني على اختلاف درجاته أرقى من التعليم الفرنسي ان الاساتذة الالمانيين يختارون بطريقة مخالفة لاختيار الاساتذة الفرنسيين فقد وجد جيراننا السر الذي يمكنهم من حمل الاساتذة على العناية بالطلبة وعلى ان ينزلوا بالتعليم الى حيث يستطيع الطلبة ان يفهموه . وذلك شيء يسير فان الطلبة هم الذين يؤجرون الاساتذة . واذ كان لكل نوع من أنواع الدرس طائفة من الاساتذة الاحرار فالطالب يختار أحسن هؤلاء الاساتذة تعليماً . فهذه المنافسة تكره الاساتذة على ان يستبقوا في العناية بالطلبة [1]

ذلك ان الاستاذ يعلم ان الطريقة الوحيدة التي توصله الى منصب الاستاذ في الجامعة انما هي أن يجمع حوله كثيراً من الطلبة وان ينشر كتبه الخاصة . وهو يعلم أن جل ما سيجر عليه هذا المنصب من المنفعة المادية انما هو ما يدفعه

---

(١) يلاحظ أن نفس هذه الطريقة موجودة في الجامعات الكبرى بفرنسا مع هذا الفرق وهو أن الطلبة لا يؤجرون الاساتذة وانما الدولة هي التي تؤجرهم . وقد عنيت الجامعات الكبرى بان يكون فيها لكل مادة من مواد الدرس أساتذة متعددون يقوم بينهم هذا التنافس العلمي الخالص الذي لا ينتظر الاستاذ من ورائه ثروة ولا مالاً لان الدولة قد ضمنت

الطلبة من الاجر . اما في فرنسا فأستاذ الجامعة عامل من عمال الحكومة له وظيفة معينة فليس يعنيه ان يستأثر بعقول سامعيه ولا ان يجتهد في الملاءمة بين قونه وقوامم . ولسنا في حاجة الى ان تتعمق في بحث الطبيعة الانسانية لتحكم بان الاستاذ لو كان مأجوراً لطلبته لاصبحت منفعته الخاصة موضوع بحثه وعنايته ولأصبح بحكم هذا العامل القوي مضطراً الى تغيير مناهجه التعليمية . فاذا كان عاجزاً عن تغييرها فسيضطره منافسوه الى أن يترك الميدان . ولكن مع الاسف الشديد ليس الى هذا التغيير الاساسي سبيل لانه يخالف طبيعتنا اللاتينية . ومع هذا فان هذا التغيير نافع جداً لانه يصلح التعليم العالي أولا ثم التعليم الثانوي بعد ذلك . ولقد حاول أفراد قليلون جداً ايجاد هذا النوع من النظام التعليمي فاضطهدتهم الجامعة اضطهاداً شديداً حين أحست نجاحهم . ذلك انها لا تحتمل الا المحاولات التي لا أمل لها في النجاح . ولقد أذكر أن الدكتور ف . أعد منذ عشرين سنة درساً خاصاً للتشريح كان الطلبة يحضرونه على أن يدفعوا أجراً ضخماً ولكنهم كانوا على ثقة بانهم سيدرسون التشريح بينما كانت الدروس الرسمية في الجامعة لا تعلمهم الا شيئاً قليل الغناء ومع أن هذه الدروس الرسمية كانت مجانية فقد كان الطلبة ينصرفون عنها انصرافاً تاماً . فاصبح الدكتور ف . وتلاميذه موضوع اضطهاد شديد من الجامعة حتى اضطر بعد أن جاهد عشر سنين الى أن يلغي درسه

فانت ترى اننا الآن بعيدون جداً عن البرامج وان ذلك يدل على أن هذه المحاولات الكثيرة التي يراد بها تغيير هذه البرامج وان هذه الصحف الكثيرة التي نشرت في ذلك كل هذا لا ينفع ولا يفيد . فليس البرنامج الا مظهراً تستطيع أن تغيره كما تشاء دون أن تغير ما وراءه من الاشياء الحقيقية ذات الأثر الحقيقي . فمن السهل أن تعنى بالمظاهر لانك تراها . ومن العسير أن تعنى بالحقائق لانك تميزها

له مرتبه وانما ينتظر من ورائه شيئاً واحداً هو انفع وانجد المشروع . ولقد رأينا هذا التنافس في باريس فضطرنا الى ألا نؤثر استاذاً على استاذ والى أن نجتهد في الاستماع لاساتذة التاريخ القديم جميعاً . ولكن للمؤلف كغيره من الفرنسيين لا يرضون عن شيء في بلادهم ويعجبون بكل شيء خارجها وربما كان في هذا خير ولكن فيه سرا كثيراً

(المترجم) .

٥

أنا أرجو أن أكون قد استطعت اثبات أن مسألة اصلاح التعليم أشد تعقيداً مما ظن أعضاء لجنة التحقيق البرلمانية . ولسنا نزعم أن هـذا الاصلاح مستحيل . وقد لا يوجد المستحيل بالقياس الى الارادة القوية . ولـكن قبل أن نصلح بمقتضى المصادفة كما نفعل منذ زمن طويل وكما نستمر الآن على أن نفعل يجب أولا أن نعرف حقائق الاشياء التي نريد اصلاحها . فان الاستمرار في جهل هذه الحقائق يضطرنا ألا نغير الا الالفاظ . نحدث الاضطراب في العقول ويصبح التعليم أشد انحطاطاً مما كان قبلا

وانما اجتهدنا في تحقيق المسائل الأساسـية للتعليم لان لجنة التحقيق لم تتصور هذه المسائل تصوراً واضحاً

ومع ذلك فهذا التحقيق الضخم لا يخلو من نفع . فقد أظهر لنا أشـياء كثيرة كنا نتخيلها دون أن نعرفها حقاً . وقد أظهر بنوع خاص حياتنـا العقلية وان الداء الذي نريد أن نطب له أبعد غوراً مما كنا نظن . ونحن نعلم أن نتيجة هذا التحقيق كانت مشروع اصلاح عرض على مجلس النواب وأقر بعد مناقشة قصيرة . في هذه المناقشة تكلم وزير المعارف فقال أقوالا عظيمة جداً ليؤيد أشياء ليست بذات خطر . وليس من شك في أن قوته الفلسفية أقوى وأعظم من أن يعتقد ان هذه الأشياء التي كان يدافع عنها تستحق هذا العناء . فقد غيرت عنوانات قليلة . ولقد قال أحد النواب وهو المسيو ماسي في هذا المشروع « انه اشبه شيء بواجهة البيت قد انفقت فيها الاموال الطائلة لتخدع الناس عما وراءها من بناء قديم لم يتغير فيه قليل ولا كثير »

كل هذه الاصلاحات التي تتناول البرامج وتتكرر من حين الى حين تخلو من النفع خلواً تاماً . وسيظل التعليم عندنا كما هو ما بقيت مناهج التعليم دون أن ينالها تغير . ولا أزال اكرر أن كل تغيير سيظل مستحيلا حتى تشعر الامر والاساتذة والمشرع بالحاجة اليـه . وكل تحقيق برلماني مهما يكبر فغايته ان يستخفي بعد قليـل تحت التراب الذي يتراكم عليه في دور الـكتب . ولقد احتجت الى مقدار عظيم من الصبر لأقرأ هذه المجلدات الستة الضخمة التي

تناولت اصلاح التعليم . ويخيل اليّ أن قليلا من المعاصرين وفقوا الى هذا الصبر

ولقد أصبحت مسألة التعليم والتربية في هذه الايام عظيمة الخطر فخيل اليّ أن من النافع أن أدرس هذه المجلدات الضخمة واستخرج خلاصتها فارتبها ترتيباً علمياً وأناقشها أحياناً . وكل النصوص التي رويتها قد صدرت عن أشخاص مسئولين . عن أشخاص يستطيعون أن يتكلموا في بلد شديد ترتيب الطبقات كبلدنا . عن أشخاص يستطيعون وحدهم ان يؤثروا في نفوس الأسر فيغيروها قليلا . وتغيير الآراء هو اول ما ينبغي ان نعنى به الآن . فاذا تم هذا التغيير واذا تم فحسب، أمكن التفكير في اصلاح التربية والتعليم . ومصاعب هذا التغيير عظيمة جداً . ومع ذلك فليست أصعب من ان تذلل . فلم يحتج العالم الى رسل كثيرين لاحداث الأديان الكبرى التي غيرت نظام الحياة وانما احتاج الى غير قليل من هؤلاء الرسل . فكل هذه الحركة التي نشأ عنها التحقيق واضطربت لها الجامعة ليس لها مصدر الا جهاد رجل قوي عامل هو المستكشف بونفالوه

واذا كان قد عجز كما عجز الذين وضعوا مجلدات التحقيق الستة عن اظهار الطريق التي يجب أن نسلكها فقد وفق الى اظهار أن الطريق التي نسلكها الآن سيئة جداً . كان كبطرس الناسك فاستطاع ان يهز الرأي العام ويصرفه عن اهماله القديم . وما هي الا ان التف حوله في تواضع اكبر رجال الجامعة مستعدين لتحطيم هذا الصنم الذي كانوا يعبدونه من قبل

فاذا جاء اليوم الذي يفهم فيه الرأي العام مقدار ما جرت علينا الجامعة من شر ويقارن بين هـذا الشر وبين ما تنتجه الجامعات في البلاد الاخرى من الخير نقول اذا جاء هذا اليوم انهدم نظام التعليم عندنا رأساً على عقب كهذا البناء البالي الذي يظهر انه قوي متين لأن احداً لا يمسه . في ذلك اليوم لا قبله نستطيع ان نحاول الوصول الى ما وصلت اليه الشعوب الاخرى بواسطة أساتذتها

يصل اللاتينيون الى تربية صحيحة تسمح لهم بان يصعدوا هذا المنحدر . منحدر السقوط الذي يهددهم الآن . يجب علينا أن نحاول ما وفق اليه الالمان . لقد فكروا تفكيراً طويلا في هذه الكلمة البعيدة الغور التي قالها ليبنتز :
« اعطني تربية صالحة . اغير وجه اوربا في اقل من قرن »

الكتاب الثاني

التعليم والتربية في الولايات المتحدة

الفصل الاول

المبادىء العامة للتربية في امريكا

انما تتكون معلوماتنا بطريق المقارنة . ولأجل ان ندرك انحطاط تعليم الجامعة عندنا يجب أن نقارن بينه وبين التربية في أشد بلاد العالم عناية بها وتنمية لها وهي امريكا

كثيرة جداً المطبوعات التي تتناول التربية في الولايات المتحدة . ولكن هذه المطبوعات قد كتبها رجال الجامعة ونظروا اليها نظراً خاصاً فهي لا تفيد الا قليلا . ومن هنا كان هذا الكتاب الفخم « مناهج التربية في امريكا » الذي وضعه المستر بابز ناظر مدرسة شارلروا استكشافاً حقيقياً . ولقد قيل بحق ان شعوباً تصطنع في تربيتها هذه المناهج خليقة ان تكوّن انسانية أرقى من انسانيتنا . ويشعر بهذا الشعور كل الذين يقرأون كتاب المستر بابز . وهو يكاد يكون الشعور الذي يجده احد كبار علمائنا المسيو لاي شاتيليه . نجد ذلك في هذا المختصر الذي نقتطفه من احدى مقالاته :

« أول أثر تحدثه في نفسك قراءة هذا الكتاب شعور بشيء من الغبطة . بحضارة أرقى من حضارتنا بغير شك . ثم بثقة عامة مطلقة بحسن أثر التربية ثم بحرية كاملة تسمح للمدارس على اختلافها بان تنمو وتعظم دون ان تمانع احداها الاخرى . وتبيح أشد التجارب دقة وجرأة . ثم احترام دقيق للمدرسة يجعلها بمأمن من آثار الجهاد السياسي الذي هو شديد العنف في امريكا . ثم بفلسفة عميقة في مناهج التربية تذهب بها مذهب تنمية القوة الشخصية العاملة . كل ذلك يشهد برقي عقلي ممتاز . وان نفعنا لعظيم جداً اذا استطعنا ان نصطنع

مناهج التربية الامريكية ولكن يجب الاّ نطمع في ذلك كثيراً . فان لذة العمل والكلف بالحرية شهوتان شابتان اشد شباباً من هذه القارة التي شاخت ومضت عليها الحقب . هذه القارة التي نعيش فيها »

وهذه الصحف التي ستلقاك والتي خصصت للتربية الامريكية مختصرة كلها من كتاب المستر بار [١] فاذا أراد القارىء ان يدرس هذا الكتاب بعناية فسيرى مسرعاً ان هذه التربية ليس من شأنها ان تنمي الاخلاق والذكاء فحسب . بل هي تسعى الى ازالة الفروق بين الطبقات الاجتماعية هذه الفروق التي تجعل حل المشاكل الاجتماعية عسيراً عند الامم اللاتينية

« يلقي الاساتذة بمهارة امام التلاميذ طائفة من المصاعب تختلف قوة وضعفاً ويكلفون هؤلاء التلاميذ ان يقدروا هذه المصاعب ويذللوها واحدة فواحدة . وفي هذا العمل يسبق الجهد الجسمي الجهد الفكري او يرافقه . واشد فروع العلم تجرداً تقدم الى التلاميذ عندنا في صورة مادية مركبة وتستلزم مهارة اليد الى مهارة الفكر في فهمها . فالجغرافيا عمل يدوي . والادب المدرسي متصل في العمل لانه شديد الاتصال بالرسم والتصوير . وارقى صور العمل اليدوي التي تصطنع في جميع المدارس انما هي في حقيقة الامر تمرن على المقاومة المعنوية . وكل التعليم يصل بين جهد العضلات وبين فهم الآراء المجردة

والتعليم الثانوي الذي هو طريق الانتقال من تبعية الطفل الى اقتناع الشاب واستقلاله الفكري خاضع لهذه القاعدة نازع دائماً الى تقوية التربية العملية . والمصاعب التي تعرض فيه اشد تعقيداً كما ان الغايات التي يرمي اليها أشد بعداً . فهو يرمي الى تحرير الفكر والشعور من كل وصاية . وذلك بتقليل حظ الاستاذ من العمل ليحل محله الشاب او الفتاة في احتمال تبعة التفكير المستقل . والمدرسة انما تأخذ نفسها بأن تعلم الاطفال ان يعملوا كأنهم وحدهم في الحياة وان يشعروا بلذة العمل والجهد . وبالفرح في مقاومة المصاعب وبان كلا منهم يملك نفسه ويراقب نفسه . والمدرسة لا تعلم الجزئيات ولا النظريات

---

(١) تفضل المؤلف فطلب الي ان اكتب مقدمة الطبعة الثالثة التي ظهرت اخيراً لكتابه (المؤلف)

بطريق الالقاء والتلقين . فان الامريكيين اساتذتهم وتلاميذهم يأنفون من النظريات المعدة ومن التعريفات والتجريدات التي لا يوصل اليها العمل والتمرين

ويلاحظ الاستاذ ان التعليم لا قيمة له اذا لم يعود الطالب ولا سيما في البحث العلمي ان يجد بنفسه حقائق العلم ونتائجها . ودرس العلم الخالص او العلم التطبيقي متأثر كل التأثر بنظرية الاستكشاف من جديد التي تسود في المعامل والمصانع [(١)]

فاما الدروس الشفوية فقيمتها قليلة جداً وهي تعد الطالب للبحث أو ترافق هذا البحث او تؤيد نتائج البحث في المعمل والمصنع اللذين هما البيئتان الحقيقيتان للدرس العلمي . والمذكرات التي تكتب في المعمل والمصنع وتقيد فيها الجزئيات والظواهر التي وصل اليها بحث الطلبة والتى هي الوصف الحقيقي للبحث الحقيقي هذه المذكرات هي المقياس الصحيح لقيمة الدراسة . وليس مذكرات الدروس التي يلقيها الاساتذة والتي هي كل شيء في اوروبا ليس لهذه المذكرات قيمة ما في امريكا . وانما يجب على الطالب ان ينتزع من الآلات والادوات اسرار الظواهر والقوانين التي تدبرها . وتقوى المهارة في الاعمال اليدوية بتجارب تشتد قسوة من يوم الى يوم فتنمي الروية في التوفيق بين الوسائل والغايات وتنمى الصبر على تحقيق أشياء ساقة تحتاج الى الجهد وطول الوقت

ويستمر انتصار العمل الشخصي والجهد الشخصي في المدارس العالية فتجاريب الطلبة هي اساس الدرس . وعمل الاستاذ هو ان يرشد اشخاص الطلبة دون ان يحكمهم . همه كله ان يظهر الطلبة ميولهم الخاصة وقواهم العقلية وما لهم من ذكاء

المدارس الاولية والثانوية انما تعنى بان تلقي في رؤوس الاطفال الحبة المباركة التي تنبت الارادة . وان تبعث فيهم منذ الطفولة حب العمل المتصل . وان تعجل انتقالهم من الخضوع الى الاستقلال . وان تعد بالتربية الصالحة فقراء التلاميذ لان

(١) هي ان يسير الاستاذ بالطالب في طريق الحقائق العلمية دون ان يدله عليها حتى يصل الطالب بنفسه الى ان يستكشف هذه الحقيقة كما استكشفها المستكشف الاول

يكفوا أنفسهم حاجات الحياة لئلا يعتمدوا الا على أنفسهم لأن يحتملوا أنفسهم
وكذلك المدارس الصناعية والفنية التي تخرج العمال تعتمد اعتماداً شديداً على التجارب الخاصة . فالعامل الامريكي الآن هو مثال العامل الاوربي في المستقبل فهو في كل الصناعات رجل متعلم . وقد انقضى في العالم الجديد عصر ذلك العامل القديم الذي كان لا يتجاوز علمه صيغاً ومناهج ومهارة يدوية وأسراراً صناعية . وأصبحت كل الصناعات تحقق الاقتصاد في الايدي العاملة باستخدام الآلات الميكانيكية الراقية وأصبحت ادارة هذه الآلات المستحدثة أشد حاجة الى قوة العقل والاعصاب وسرعة البديهة منها الى قوة الجسم والعضلات . وقد أحدث رقي الصناعة وتحولها السريع في العمال المشرفين على العمل صفات عقلية لم تكن لهم من قبل . وأخذت المدارس الصناعية مع اختلافها تجتهد في ترقية هذه الصفات وتنميتها . والتعليم النظري فيها خاضع كما في غيرها من المدارس لمناهج عملية . فالدروس الشفوية تعتمد على التمرين اليدوي الذي يضيف الى العلم بأصول الصناعة قوة الملاحظة ومهارة اليد والذكاء الصناعي وليس هناك أثر للتخصص الا في ثلاث مدارس أو أربع . فالمدرسة تسعى في ان تنمي في العامل القوة على التنفيذ . فهي تكون الرجل الكامل وتمنحه تعليماً صناعياً عاماً وتقاوم بهذه الطريقة ذلك الجهد المضعف الذي ينشأ عن تشابه العمل وتوزيعه. فاذا أردنا ان نحكم على هذه المناهج بنتائجها فان قوة الانتاج الامريكي تدل على انها خير ما عرف الانسان من المناهج

لن تجد وراء الاطلنطيق أثراً من آثار هذه الاحكام الموروثة التي تمتهن العمل اليدوي . وليس من الناس من ينظر الى هذا العمل كأنه مهين أو مضيع للشرف . وليس يظهر ان الاستاذ أو القاضي أعلى مكانة في نظر الناس من الوجهة العقلية من العامل الذكي . وقد عرف الموظفون قيمة مكانتهم الاجتماعية منذ زمن طويل فان عملهم في الاسبوع ينتج لاحدهم خمسين الى خمسة وسبعين فرنكا بينما يصل البناء والنجار الى عشرين ومئة في الاسبوع . ولقد تجد العامل وراء كل أمريكي : فالامريكي يحكم على الرجل بكفايته في الانتاج والايجاد وهو لا يصدق ان الشهادات تمنح صاحبها شيئاً من الشرف العقلي »

الفصل الثاني

تفصيل المناهج المستعملة في المدارس الامريكية

١

تقسيم التعليم

ينقسم التعليم في أمريكا أربعة أقسام يستغرق كل قسم منها أربع سنين :
فهو تعليم أولي : من السادسة الى العاشرة
وهو تعليم ابتدائي : من العاشرة الى الرابعة عشرة
وهو تعليم ثانوي أو صناعي : من الرابعة عشرة الى الثامنة عشرة
وهو تعليم فني عال : من الثامنة عشرة الى الثانية والعشرين

والاطفال الامريكيون جميعاً يمرون بالقسمين الأولين . وعدد منهم يزداد في كل يوم ويشترك فيه العمال يقصد الى التعليم الثانوي وما فيه من درس لاتيني . وكثير منهم مع هـذا ينصرف عن هـذا التعليم بعد سنتين نحو السادسة عشرة ليبحث له عن عمل في التجارة أو لينتظم في المدارس الصناعية التي تعنى قبل كل شيء بان تحل تلاميذها محل صغار العمال في المعامل .وطائفة ممتازة هي التي تصل الى التعليم العالي الذي يعاب بان حظه العملي قليل

ومن هـذه الانواع الخمسـة من التعليم التي أشرنا اليها آنفاً تمتاز الثلاثة الاولى بشدة القيمة . وقد كثر فيها البحث والمناقشـة وعمت مناهجها جميع الولايات المتحدة

٢

التعليم الاولي (من السادسة الى العاشرة)

العمل اليدوي . تقوم التربية على التعليم اليدوي . فالعمل اليدوي يعلم التلميذ الابتكار وتنفيـذ ما يبتكر . وأحسن مظهر لمبدأ الابتكار هو الرسم

والهندسة ودروس الملاحظة. فاما التنفيذ فظاهره الاعمال اليدوية

وقد وجد الابتكار القطري دون ان يعتمد على النظريات العامة حلولا . . مه تسهل الانتقال من المدرسة الى العمل . فاستخدمت المواد المختلفة في البناء مثلا . فمدارس نيويرك تستخدم احتذاء المثال واتخاذ البناء من الورق وتستخدم الفتل . فاما احتذاء المثال فيعطي التلميذ فكرة من تكون جسم ما أي انه يعطيه فكرة من الابعاد الثلاثة . والبناء من الورق يعتمد على بعدين اثنين . ثم يأتي الفتل وهو يعتمد على بعد واحد هو الطول . وفي كثير من المدارس الامريكية كما في مدارس نيويرك تدور دروس الرسم والاعمال اليدوية حول طائفة من الافكار يسميها الامريكيون « مراكز العناية » وهي التي يمكن ان تصل اليها ملاحظات الاطفال . وهذه المراكز هي :

أولا : البيت وما فيه من شغل وواجب ولذة منزلية

ثانياً : الحياة العامة وما فيها من طرق المواصلات والنقل وشغل السكان واللهو

ثالثاً : الحياة المدرسية

رابعاً : اللغة

خامساً : المساحة

سادساً : درس المناظر الطبيعية

للامريكيين مناهج لا تتغير وبمقتضى هذه المناهج يصل الاستاذ دائماً في مناقشته مع التلاميذ الى ان يوجد من أحد هذه «المراكز» المتقدمة موضوعاً للبحث . فيعنى الطفل بهذا البحث عناية شديدة . ذلك لان خياله يصل بين هذا البحث وبين شعوره وذاكرته وهو في هذا البحث يحاول التحقيق العملي لحياته الفكرية الخاصة

الرسم : للرسم قيمة فنية في المدارس الاولية . فان أمريكا لا تؤمن بالفكرة الاوربية التي تقتضي تمرين العين واليد بواسطة الرسم النظري بمقتضى اشكال هندسية أو نسخ النماذج . وانما تعنى عناية خاصة بالرسم الذي ينقل صور الطبيعة والغاية القصوى هي حمل التلميذ على ان يظهر فكرته في صورة فنية . فالطفل الامريكي منذ حداثة سنه يعرف أقلام الرسم والالوان المائية . وفن الرسم

هو تصوير الاوراق والازهار والنبات كاملة بالألوان المائية مباشرة دون أن يسبق ذلك اعـداد المسودات والاشكال المختصرة مجتنبة في النماذج . ليس الرسم الا ابتداء في العمل ومع ذلك فلا يخلو غالباً من ذوق وفن . وكثيراً ما تتخذ الوجوه الانسانية نماذج للرسم في المدارس الأولية . فيوضع الطفل غالباً موضع النموذج وحوله أشياء مختلفة كالسلم وأدوات الصناعة مثلا .

فن البساتين : . يشتغل خمسة وأربعون ألف طفل في واشنجتون بفن البساتين . وتعرض المدارس في كل سنة معارض للزهر ونبات الزينة والخضر التي عني بها التلاميذ وتعرض معها الاعمال المدرسية التي استعيرت من الحدائق

وتدور دروس الاشياء والاعمال اليدوية والحساب ومبادئ الجغرافيا في مدارس واشنجتون حول هـذه الحدائق الصغيرة فتملأ غرف الدرس بمعلومات رخصة محسوسة تتصل بالارض والرطوبة والجهات والبذر وأشـكال الورق والزهر والثمر في صورها المختلفة بمقتضى أنواع النبات وبمقتضى الفصول . ولـكل طفل دفتر يقيد فيه تاريخ البذر وملاحظاته المتصلة بنمو النبات وظهور الزهر والنضح والجني . ويجني الاطفال من هذه الحدائق طاقات كبيرة يتخذونها نماذج في دروس الرسم . فترى أن الرسم وتمرين الملاحظة واللغة تسير جنباً لجنب مع الاعمال الخارجية

٣

التعليم الابتدائي (من العاشرة الى الرابعة عشرة)

لم يبق من شك في صحة النظرية البسيكولوجية نظرية التربيـة بواسطة الاعمال اليدوية . ويمكن تلخيصها فيما يأتي حسب تصور الامريكيين : كل حركة شعورية فهي منبعثة عن احدى الخلايا المحركة في المخ . والتفكير دون العمل يستطيع أن ينمي الخيال ولـكنه يترك الارادة مهملة . فليس الى نمو الارادة من سبيل الا العمل . وكل حركة عضلية تنعكس على خلايا المخ بواسطة الحس وترتسم في منعكس الأضواء أشكالا وصوراً . ولأجل أن تضاعف قابلية المخ تقضي التربية الصحيحة بتنويع الحركات في الاعمال اليدوية حتى

تأخذ كل جماعة من الخلايا بنصيبها . ومن هنا يظهر انك اذا أردت تنمية كل القسم المحرك من المخ وجب ان تكثر من التمرينات العظيمة المتنوعة وأن تنظمها بحيث تشحذ الحس والتصور وبحيث تبعث الفكرة وتقوي الارادة . ويظهر ايضاً ان هذه الحركات اذا أصبحت عادة فقد تحدث دون روية ولا تنمي الخلايا المحركة . واذن فليس لها قيمة من وجهة التربية . وانما قيمة الاعمال اليدوية في أول عهدها حين تبعث على الحركة . وربما استطاع التمرين الذي يتجاوز حد التربية ان يعد للنمو الفني والصناعي . ولكنه ليس من وسائل التربية . والأعمال اليدوية المتنوعة تتلخص في أربعة مذاهب . أولا : مذهب التربية وأصله في السويد . ثانياً : المذهب العلمي وهو روسي الاصل . ثالثاً : المذهب الاجتماعي . رابعاً : المذهب الفني

فاما مذهب التربية فينظر الى الاعمال اليدوية كما ينظر الى الحساب والرسم والعلوم الطبيعية من حيث هي وسائل الى التثقيف والتعليم تنبه الالتفات والتصور والحكم وتنمي الملكات جميعاً تنمية صحيحة . وهو يعتمد على مبدأ « فروبل » الذي هو التربية بواسطة العمل والذي يرجع فيه الى الآثار المدرسية « لكجنوس » الفنلندي . وقد وصلت هذه المبادىء الى شكل مذهب علمي في مدرسة المعلمين بمدينة « ناس » في السويد وانتشر هذا المذهب حتى عم البلاد المتحضرة متغيراً بمقتضى الاستعداد والاخلاق والنفسيات التي تختلف باختلاف الاجناس

وأهم ما يعتمد عليه هذا المذهب هو اختيار النماذج . فان هذه النماذج يجب ان تكون من القيمة بحيث تكره التلميذ على ان يبذل كل جهده في محاكاتها . واذن فيجب ان تتأثر هذه النماذج بمؤثرات مختلفة كالذوق والاخلاق والبيئة . وهنا توجد الميزة الحقيقية لهذا المذهب

وليست قيمة النماذج في النماذج أنفسها فان هذه النماذج ليست بمأمن من التغير والتبدل . وانما هذه القيمة في الأسباب الثابتة التي تعتمد عليها هذه النماذج . فان هذا المذهب يلاحظ ملاحظة دقيقة الشدة التي يجب ان تزداد قليلا قليلا حسب تقدم الطالب ونموه ويلاحظ تأثير بعض الآلات في النمو العضلي وقدرة التلميذ على العمل في ظل غيره والنفع واللذة اللذين يجدهما

التلميذ في تنفيذ عمل معين في وقت معين

ولقد وصلت امريكا الى ثراء مادي لم يعرفه تاريخها من قبل . فلما تم لها ما أرادت من الحاجات المادية ظهرت لها حاجات اخرى راقية لا يقنعها الا الجمال . وانما يظهر هذا الميل الشديد الى الجمال في الرسم والاعمال اليدوية . وقد ظهرت في مواضع كثيرة مذاهب في التعليم ترمي الى الجمال . فكثرت مدارس الفنون التطبيقية . واشتدت العناية باعداد أساتذة الفن كما اشتد ازدحام الناس على الدروس الفنية العامة . وظهرت هذه العناية نفسها في المدارس الأولية وذلك بظهور مذاهب مختلفة في التربية الفنية أشهرها وأغربها مذهب مسيو « تاد » مدير مدرسة الفنون العامة في فيلادلفيا . فقد تزدحم غرف هذه المدرسة بالاطفال من بنين وبنات يضطربون جميعاً في أعمال يظهر انها تلائم أذواقهم . فمنهم من يعنى بخلق المناظر او الاطارات المزخرفة . وآخرون يرسمون رسماً طبيعياً الطير والزهر والسمك والصدف والمعادن . ومنهم من فقد نموذجه فهو يجتهد في أن يضع لنفسه هذا النموذج بواسطة الذاكرة . ولكن العناية تشتد جداً بنوعين من العمل يحبهما الطلبة حباً شديداً . صياغة النماذج والخرط في الخشب

والصلة بين هذه الاعمال كلها موضوع دروس في الزخرفة وتاريخ الفن يستعان فيها بالفانوس السحري والصور الشمسية والحفر

اعداد الأساتذة . ــ يعلن الامريكيون نفع الاعمال اليدوية ولكنهم متشددون فيما يجب أن تكون عليه هذه الاعمال من الجودة . فالاعمال اليدوية عندهم نظام عقلي كالحساب والعلم الطبيعي . ولن نسرف مهما نطل القول في نظام هذه الاعمال المتصل فان عمل الشيء المصنوع هو موضوع مناقشة متصلة بين الاستاذ والتلميذ من هذه المناقشة يستنتج الطالب الصورة والابعاد والمواد التي يجب استخدامها ثم نموذج الشيء الذي يراد صنعه . والصلة بين عمل هذا الشيء وصورته وابعاده ومواده هي الفكرة الاساسية في الاعمال اليدوية . هذه المعاني دقيقة يجب ان تستنبط من تركيب الشيء نفسه . وانما يصل الاستاذ الى القدرة على تعليم هذا كله بعد استعداد شديد دقيق . ويمكن الاقتناع بذلك اذا فكرت في هذا المثل : وهو صنع كرسي (يمرن التلامذة على هذا في

دروس السنة السابعة والثامنة للاطفال الذين بلغوا الحادية عشرة الى الرابعة عشرة) . ويمكن أن يرسم برنامج الدرس فيما يأتي : امتحان عمل هذا الكرسي وهو انه يتخذ مقعداً . هذا الامتحان يؤدي في الحال الى صورة الطفل جالساً التي هي صورة الرجل . فاذا أمعن الاستاذ في المناقشة وجد التلاميذ صورة ظهر الكرسي وابعاده . بل استطاعوا أن يراقبوا صنع هذا الكرسي والمواضع التي يجب تمتينها . وهم بهذه الطريقة يصلون الى أن يضعوا نموذج الكرسي وفي هذا النموذج الفكرة التي يجب تنفيذها فاذا وصلوا الى النموذج بدأوا في العمل . ونفس هذا المذهب الذي يستخدم العمل سبيلا الى ايجاد الفكرة وتقويتها يستخدم في كل شيء

ويرى الامريكيون ان لا قيمة للاعمال التي يقوم بها الطالب دون أن يكون قد تصورها وفهمها من قبل . في هذا المنهج العلمي توجد القيمة الحقيقية للاعمال اليدوية . فاذا اتبع هذا المنهج كان العمل الصناعي حين يتحقق في الخارج نتيجة منطبقة لقضية عقلية وكلف الطالب بعد النظر عند وضع النماذج والتوفيق بين الوسائل والغايات ومبدأ « أقل جهد لاكبر نتيجة »

تحتاج هذه المناهج الى مدير يعنى بتنظيم الدروس ومراقبتها والى اساتذة يعلمون هذه الدروس والى معلومات واستعدادات جدية ليس الى اكتسابها من سبيل اذا نظرت الى الاعمال اليدوية كأنها شيء اضافي . ولأجل اتقاء عجز الاساتذة وقلة كفايتهم انشئت مدارس خصوصية لتخريج المعلمين في هذه الاعمال

٤

التعليم الثانوي (من الرابعة عشرة الى الثامنة عشرة)

يزول الحد في المدارس الثانوية الامريكية بين التهذيب العقلي والتعلم الصناعي . وقد عرضت مسألة التعليم المتوسط في امريكا بنفس الطريقة التي عرضت بها في اوربا . فقد نشأ الى جانب المدارس القديمة التي كانت تمد للكليات مدارس متوسطة تحاول حل المسائل التي تشغل البلاد الصناعية : وهي اعداد الطالب بالتعليم المتوسط ليشغل المراكز العالية في الحياة العملية من جهة وليستطيع ان يدخل المدارس العالية من جهة اخرى . ولأجل ان

تتحقق الشروط اللازمة لدخول الجامعات وللحياة العملية اختلفت البرامج اختلافاً شديداً . فقد تجد فيها مواد التعليم مختلفة متباينة تجمع بين الشاعر اليوناني ايسكيلوس وبين مسك الدفاتر والمساحة . ومن هذا الاختلاط تكونت طوائف مختلفة من الدروس : منها قسم اليونانية واللاتينية . ومنها القسم اللاتيني الخالص . والقسم العلمي الذي نجده في تعليمنا المتوسط

وهذا التقسيم يوجد في اكثر المدارس المتوسطة الامريكية . لا بطريقة محددة بل بشيء من الحرية كثير . ونظام كثير من المدارس الثانوية في هذا العصر ليس هو نظام الاقسام المنفصلة . وانما يقوم على طائفة من العلوم يكلف الطلبة جميعاً حضورها ثم الى جانبها دروس كثيرة مختلفة يختار الطلبة منها ما يريدون . فاللغة الانجليزية (ولها ثلاث سنين او أربع) والرياضة (ولها سنتان) فرعان عامان لا يكاد يعفى منهما أحد . وربما اضيف اليهما التاريخ والعلوم الطبيعية واللغات الحية

وفي بعض المدارس يخصص الجزء الاعظم من الوقت للدروس التي اختارها الطالب حراً . وفي بعضها الآخر يخصص لهذه الدروس وقت أقل من ذلك . ومن الغريب أن الاحصاء يثبت أن عدد الطلبة الذين يدرسون اللاتينية مستقر لا ينقص . وقد أغارت الاعمال اليدوية على المدارس القديمة فاضيفت في « بوستون » على انها فرع اختياري . وقد اشتد ميل الطلبة الى هذه الاعمال التي درسوها في المدارس الاولى حتى ان الذين ينتسبون الى مدارس النظام القديم يستمرون في درس هذه الاعمال . فتعنى الفتاة بالمطبخ والخياطة وغيرها من الاعمال المنزلية بينما يشتغل الفتى في المصنع . وفي هذه النقطة وحدها يختلف الدرس بين الفتيان والفتيات . فاما فيما عدا ذلك فالدروس الثانوية واحدة للجنسين . أما المدارس الثانوية الفنية فهي لا تعطي التعليم الصناعي في الفنون الميكانيكية وانما هي مدارس تعليم عام كمدارسنا العادية . والعناية فيها بدروس الرسم والأعمال اليدوية كالعناية بالحساب والجغرافيا والتاريخ . ودروسها العلمية والادبية واليدوية توافق كل الطبقات الاجتماعية وكل الشبان مهما تكن حياتهم المقبلة وسواء أرغبوا في المحاماة او في الطب او في ادارة المصانع او في أن يكونوا عمالاً عاديين ؟

ولنضرب لذلك مثلا تعليم الهندسة : ليس من سبيل الى درس الهندسة بقراءة النظريات في كتاب او بشرح هذه النظريات في درس شفهي . بل يجب ان تضاف الى هذا أعمال مستقلة تلذ الطالب وترغبه في الدرس . وقد تصورت المدارس الامريكية درس الهندسة تصوراً ينمي في الطالب قوة الابتكار . ومواد الهندسة سهلة محسوسة تسمح بعدد لا حد له من التمرينات السهلة والصعبة . وليس للهندسة الاولية مناهج عامة للاستدلال . وانما يجب ان تدرس كل نظرية من حيث هي درساً يخالف قليلا او كثيراً درس غيرها من النظريات . اختراع هذا المذهب في الاستدلال تمرين عقلي أنفع وأقوى من هذا التطبيق الآلي للمناهج العامة كحساب التبادل وحساب التوافق

ولا يكاد يوجد فرق بين ما يدرس من الهندسة الوصفية في مدارس امريكا وفي مدارسنا . ولكن للاساتذة الامريكيين في درس الهندسة الفراغية ضروباً من الحدس يستطيع اساتذتنا ومؤلفونا ان ينتفعوا بها . فهم يذهبون الى ان اشكال الهندسة الوصفية لا يمكن ان تمثل تمثيلا بارزاً ولا ان تتخذ في رسمها المسطرة والبركار ولا أي آلة من آلات الرسم . واذ كانوا يرون الحدس امراً لا بد منه فهم يتخذون هذه الاشكال بواسطة الخطوط والرسوم المادية وبواسطة مستطيلات من الصلب ومربعات زجاجية شفافة وصور من الخشب . والاستاذ يستخدم في هذه الدروس آلات ركبت تركيباً شديد الاتقان يمكن من الحدس يستعين بها الطلبة قبل كل استدلال نظري على تفسير المواد بل وعلى حل المسائل

الفصل الثالث

درس العلوم التجريبية في مدارس امريكا

١

درس الطبيعة

يشرح الاستاذ لسامعيه القوانين الاساسية لعلم الطبيعة مؤيداً ذلك بالتجارب . ويحقق الطالب في المعمل طائفة من التجارب تؤيد وتكمل ما سمع في الدرس . والمعمل في كثير من الاحيان يسبق الدرس في تعليم الطلبة ما يدرسون . والمعمل الطبيعي اختراع امريكي . فلسنا نعرف مدرسة في القارة الاوروبية تبلغ من الدرس العملي ما تبلغه المدارس الامريكية

ولقد زرنا نحو عشرين معملا من معامل المدارس الثانوية أثناء عملها فكان اعجابنا مضاعفاً باتقانها وحسن عملها

زرنا مدرسة « كران منوال ترينينج سكول » "Crane Manual Training School" فكانت التجربة الجارية حين زرنا المعمل تدور حول قوانين

والقارىء يستطيع ان يقدر رضى الطلبة حين انتهت التجربة فكتبوا في دفاترهم من عند انفسهم : « قوانين البدول » . ان حركات . . . . متساوية الآناء وهي مناسبة للجزء المربع لطول . . . . .

ليس بين الظاهرة الطبيعية من جهة وبين عين التلميذ ومخه من جهة اخرى جمل فارغة ولا الفاظ اصطلاحية ولا حدود ولا صيغ يجب ان تحفظ . وانما هي الحقيقة المجردة تظهر له . وتدخل ذاكرته

والآلات في اكثر المدارس متينة عادية ليس فيها تفنن ولا ترف . ففيها أشياء استعيرت من الحياة العملية . كالآلات الرافعة والموازين وغير ذلك . وكل هذه الآلات في اكثر الاحيان قد رسمها الطلبة وصنعوها في المدارس . وتعتمد التجارب على الكتب وعلى ثبت يبين الغاية التي ترمي اليها كل تجربة

والاغلاط الذي يجب اتقاؤها والادوات التي يجب استخدامها . ويقيد التلميذ بعناية في دفتر معه نتائج ملاحظاته . ويلاحظ الاستاذ سير التجارب تاركا للتلميذ خير النتائج وشرها

٢
تعليم الكيمياء

لأصغر المدارس الثانوية معمل من معامل الكيمياء يستطيع الطالب فيه ان يحقق مقداراً من العمل الشخصي لا بد منه للحياة او لدخول المدرسة . ولا يكاد الامريكيون يعنون بالدروس الشفوية في الكيمياء مهما تكن مقدرة الاستاذ ومهارته في اجراء التجارب . ولم نجد مدرسة واحدة تكتفي بمثل هذا التعليم . ذلك ان الدرس الشفهي للعلوم التجريبية لا يتفق مع النفسية الامريكية ولا يستطيع الطلبة ان يصبروا عليه . ولا يكاد يوجد في امريكا كما يوجد عندنا استاذ يجمع مئة من الطلبة امام معمل توافرت فيه الادوات المختلفة للتجارب المختلفة . ولا يوجد هذا الاستاذ الذي يعمل باسم الطلبة ويلقي اليهم بعد ذلك نتائج وصل اليها هو بالتجربة او من الكتاب . وانما أساس الدرس في العلوم التجريبية عامة وفي الكيمياء خاصة هو المعمل حيث يفكر الطالب ويعمل في وقت واحد . وكثير من المدارس لا تقرر الدروس الشفهية . فاذا قررتها بعض المدارس فعدد هذه الدروس لا يتجاوز خمسة وعشرين درساً لكل درس منها ثلاثة ارباع الساعة . واكثر هذه المدارس تقرر دروس الالقاء فيدرس الطالب نظرية من النظريات ثم يأتي فيشرحها امام استاذه ورفاقه

ولقد تعود الامريكيون الاعتماد على أنفسهم في كل شيء وفي الدرس بنوع خاص حتى أصبحت طريقتهم في درس العلوم التجريبية شديدة الظرف . توجد المسائل التجريبية التي يراد حلها في كتب الدرس وهي تعرض على الطلبة في ثبت مخصص لها (١)

(١) ثم يفصل المؤلف بعض الطرق العملية التي تتبع في مدارس امريكا تفصيلا نرى ان لا حاجة اليه

ترقى الدروس شيئاً فشيئاً باجراء التجربة على طائفة من الحوادث تمر تحت أعين الطلبة وأيديهم . ولقد يدهش الذين يعرفون ملل تلاميذنا من دروس الكيمياء التي تعتمد على الكتب اذا رأوا شغف الطلبة الامريكيين بدروسهم المعتمدة على التجربة والتي تفيدهم في تربية نفوسهم وفي حياتهم العلمية أيضاً

ان تلاميذنا ينظرون الى الكيمياء الشفهية كما ينظرون الى مجموعة مستقلة تتألف من أشياء ليس بينها صلة . ويخيل اليهم أن نظريات الكيمياء ليست مستنبطة من الحقائق الواقعة . وانما الشعور الدائم المتشابه الذي يبقى في النفوس من دروس الكيمياء التي تسمى تجريبية ـ لان يد الاستاذ من وقت الى آخر تعبث فيها ببعض الادوات امام الطلبة ـ هو أن النظريات والقوانين شيء أساسي لا بد منه . وان الحقائق الواقعة تتكلف موافقة النظريات . وان علم الكيمياء كله معلق بنظرية الذرات . وانه بدون هذه النظرية لا سبيل الى استكشاف او تحليل . والمبتدىء يرى انه قد تقدم كثيراً في مادة الكيمياء اذا استطاع أن يطلق على الماء اسمه الكيمائي (H^2O) وان لم يكن يعرف شيئاً عن أصل هذه الصيغة او معناها . بينما مناهج التعليم في أمريكا لا تعرض التلميذ لمثل هذه الميول الخطرة . وانما تنتهي بالطالب الى شعور أقرب الى الحقيقة . فان العمل المنظم يوصل الى استكشاف حقائق جديدة . فهو يظهر الصلات بين الجزئيات وينتهي الى استكشاف القوانين والنظريات ويسهل البحث واستكشاف جزئيات اخرى

وهذه النظريات في رأي التلاميذ تابعة للجزئيات موقوفة عليها . وهم يسترشدون في أعمالهم بهذه الحقيقة الاساسية التي تضمن لهم الفوز

يضع الامريكيون مكان مناهجنا السلبية التي لا تعتمد الا على حفظ الالفاظ مناهج عملية مربية تعتمد على الجهد والارادة والمهارة العملية والمنطق. وهم يعنون في كثير من المدارس عناية خاصة بالعمل في الكيمياء العددية . يصلون الى تمرين نافع في المقاييس . ودقة غريبة في الملاحظة وينتهون الى

نقد القوانين وتحقيقها . هذه القوانين التي يقبلها الطالب على انها حقائق نظرية [١]

والمعلمون في امريكا مجمعون على ان الدروس التجريبية والشفهية ضرورية لاستنباط الكليات من الجزئيات . ولكن تعليم الكيمياء لا يمكن ان يفيد الا في معمل حسن النظام موفور الادوات

٣

الاعمال اليدوية في التعليم الثانوي

القاعدة العامة عند الامريكيين هي ان أحسن مناهج التعليم سبيلا الى الرقي انما هي تلك التي تمكن الطالب من ان يستمتع بقوته الشخصية . ويعنى الاستاذ بان يكون تدخله في الدرس أقل ما يمكن ان يكون . بحيث يصل الطالب شيئاً فشيئاً الى ان يبتكر ويراقب عمله بنفسه والى ان يكون هو صاحب السلطان على قواه وملكاته فينظمها تنظيما حسناً منتجاً . وعلى هذه القاعدة أصبح تعليم العلوم التي ذكرناها آنفاً — ولا سيما الاعمال اليدوية — منمياً للقوة الخاصة وللارادة التي تعنى بالتنفيذ والعمل . والقواعد التي تتخذ أساساً للاعمال اليدوية هي بعينها التي تلاحظ في معامل الكيمياء والطبيعة والعلم الطبيعي . والمناهج هي مناهج العلوم التجريبية . وسواء أكانت الاعمال اليدوية اختيارية كما في المدارس الثانوية العلمية . ام اجبارية كما في المدارس الثانوية الفنية فهي تشتمل بالقياس الى الشبان على ما يأتي :

اولا — العمل في الخشب : كالنجارة . والخرط وما يشبههما

ثانياً — العمل في المعدن : كاصطناع الحديد والصلب . والبراد اليدوية او الآلية

اما الفتيات فيدرسن العلوم المنزلية : كالطبخ والغسل وتدبير المنزل والخياطة والاقتصاد المنزلي والفنون المنزلية

والاعمال اليدوية تعليم تقصد منه التربية قبل كل شيء كما في التعليم الاولي

---

(١) ثم يضرب المؤلف امثالا اعرضنا عنها لعدم الحاجة اليها

وهذا التعليم يوصل التلاميذ العاميين الى مهارة لا بأس بها لان كل نموذج جديد يشتمل مع جدته على شيء مما درسه التلميذ في الطور الذي تقدمه . والامريكيون يرون ان الاعمال التي لا تتأثر بفكرة معينة ليس لها قيمة ما من وجهـة التربية . وهم يتهمون المربين في السويد بانهم قد سلبوا مذهبهم في التربية كل حياة وكل روح لانهم جردوا النماذج من كل أثر فني . وعناية الامريكيين باخضاع التعليم اليدوي لفكرة اساسية هي التي تجعل التلاميذ يعدون صورة الاعمال ويتناقشون فيها قبل التنفيذ . وهم لذلك يجتمعون حول الاستاذ فيتبادلون الرأي ويتناقشون ويسألون وينقدون وما يزالون في ذلك حتى تظهر الفكرة الاساسية دقيقة واضحة . وكذلك اذا اراد الاستاذ تعليم تلاميذه شيئاً جديداً او استخدام اداة جديدة جمع التلاميذ حوله ثم حل هذه الاداة الى اجزائها الاولى وشرح هـذه الاجزاء للتلاميذ ثم يعدها ويركبها من جديد . والامريكيون يتبعون هذه الطريقة التجريبية بدقة شديدة ولا سيما في مدارس المعلمين الفنيـة . واذا كانت قواعد التربية متشابهـة او ميالة الى التشابه في امريكا فان النماذج والامثلة العملية تختلف اختلافاً لا يكاد يوصف. ومن المدارس الثانوية ما تعنى في هذه الاعمال بالفن الجميل

الخلاصة

يبعث الاوروبي ابنه الى المدرسة ليتعلم فيها شيئاً ما . اما الامريكي فيريد من المدرسة ان تضمن التربية الـكاملة لابنه . التربية العملية والعقلية والخلقية لا تعني مدارسنا عناية تذكر بما للتربية من أثر عظيم في حياة الامة ومجدها وبراج التعليم عندنا ثابتـة لا تتغير . والمناهج لا تعنى الا بالمبادىء المجردة والاستدلال المنطقي الخالص وبالنتائج تستخرج من اقيسة المنطق . وتدرس عندنا العلوم بطرق قد اصطلح عليها وبعد ما بينها وبين صور الحياة الحقيقية . فاما مسائل تنظيم المدارس ووضع البراج ودرس الاستعداد لحسن التربية فلا تدرس ولا تناقش الا في طبقات ضيقة محصورة . والشعب لا يفهم لغة المربين عندنا . وانما يظل اجنبياً بالقياس الى هذه المناقشات التي هي وقف على الفنيين

والموظفين . اما في امريكا فعلى العكس من ذلك . لكل مدرسة حركتها الخاصة وكل المسائل الكبرى التي تمس نصيب امريكا العلمي والمدرسي موضوع مناقشة متصلة في الكتب والمجلات والصحف السيارة ولا سيما في الجماعات والمؤتمرات التي يحضرها ويفهمها الشعب . فاذا جد في هذه المسائل جديد قيد ثم نوقش ثم جرب ثم نفذ . والشعب الذي يسمح له بحضور الدروس ودخول المعامل يشهد هذا كله ويعلن رضاه . وبتأثيره امتدت الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي دخلت المدارس فاعطت للدروس صورة رخصة نضرة صحيحة . وفي كل أنواع التعليم لا يفصل بين الفكرة وتنفيذها العملي . بهذه التربية العاملة تقوى ارادة الاطفال والشبان وتملك نفسها

والامريكي يشعر شعوراً جلياً بان مستقبل بلاده كله بين يدي المرأة التي تعل الى الطفل نظم التربية وأساليبها . وبينما الاوربيون لا يعنون بالمرأة في الحياة العقلية وانما يحصرونها في دائرة ضيقة جداً من العلم تتلقاها في المدارس الخاصة او المدارس الوسطى القليلة التي لا يدخلها الا قليل من الفتيات . فان المدارس الثانوية الامريكية كلها مكتظة بالفتيات على اختلاف طبقاتهن يدخلن هذه المدارس فتنمى ملكاتهن العملية بالعلم والادب وملكاتهن العملية بدروس حياة الاسرة والمنزل على اختلافها . وقد اتصل بالمدرسة مطبخ ومحل لخياطة الثياب فاصبح بمجموع هذا كله معملا حقيقياً تكتسب فيه الفتاة قبل ان تصبح زوجة الاستعداد والمعلومات الضرورية التي تضمن لها حياة مستقلة وتمكنها من ان تحفظ وتنمي القوة المادية والعقلية للامة

وللامريكيين مثلنا ميل الى الخير ورغبة في التضامن الاجتماعي . ولكن هذه الرغبة وذلك الميل لا يعتمدان في امريكا على العواطف والشعور وشيء يشبه التصوف . وانما يعتمدان على المنفعة العملية للمجتمع . فالافراد والمدن يستبقون الى الخير ويتنافسون في انشاء المكاتب للاطفال والشبان وفي تأييد المدارس ومعاهد العلم والتربية بما يستطيعون ان يبذلوا من قوة ومال

والمثل الاعلى للتربية الذي ينشأ عن هذا الشعور الوطني ساذج ديمقراطي . فان البحث المدرسي العام كالبحث الفني يعتمد على تعليم أساسي واسع . وكذلك تعتمد درجات التعليم بعضها على بعض ويتصل بعضها ببعض اتصالا

صحيحاً سهلا تود درجات التعليم عندنا لو وفقت اليه ..

والمدارس كلها على اختلاف درجاتها وموضوعات الدراسة فيها تؤلف وحدة مستقلة متناسبة الاجزاء

وبينما المدرسة الاوربية تقوم على جهل الطبيعة الانسانية عامة وطبيعة الطفل خاصة . فهي لا تربي التلميذ وانما تفسده فتصوره دون حياء ولا خجل. هذه الصورة القديمة التي تمحي فيها الشخصية . فان المدرسة الامريكية تخالفها المخالفة كلها فهي لا تصور الطفل صورة معينة ولا تصبه في قالب معروف . وانما تربيه وتنمي شخصيته وتقوي فيه كل ما يبعث فيه الارادة القوية والشخصية البارزة

الكتاب الثالث

تعليم الجامعة في فرنسا

الفصل الاول

قيمة مناهج الجامعة

١

منهج الذاكرة

لنترك اميركا ولنعد الا ن الى جامعتنا

في العصر القديم كان التعليم يكاد ينحصر في درس اللاتينية واليونانية واستظهار ما كان معروفاً من مبادىء العلم . فكانت طريقة اليسوعيين ملائمة لهذا النوع من الدرس . فكان تلاميذهم يصلون الى كتابة اللاتينية ولم يكونوا محتاجين الى اجهاد الذاكرة ليستظهروا هذه المبادىء العلمية القليلة التي كانت معروفة يومئذ . فكان الاعتماد على الذاكرة كافياً لما يحتاج اليه ذلك العصر . ولكن نما العلم في العصر الحديث فظهرت الحاجة الى مناهج أخرى . ولم تستطع الجامعة ان تفهم هذا ولا ان تقدره . وانما ظلت تستخدم الذاكرة الى الآن

« ومن هنا كثرت البرامج المملة التي يضاف اليها في كل يوم علم جديد والتي ترى فيها علم الصحة والحقوق والآثار تجاور اللغات الميتة والحية والرياضة والتاريخ والجغرافيا الخ ... وقد خيل الى الجامعة خطأً انها بهذه الطريقة تصل الى التعليم الجدي العملي . فلم تصل الا الى التعليم السطحي . خيل الى الجامعة ان الطفل يجب ان يجمع في ذاكرته هذا المقدار الضخم من العلم قبل ان يدخل في الحياة . فظهر ان هذا المقدار الضخم لا يعلم الطفل شيئاً[1] »

---

(١) منقول من التحقيق البرلماني

وفي الحق انه لا يعلم شيئاً في فرع من فروع العلم . كما يثبت التحقيق البرلماني الذي تتشابه اجزاؤه تشابهاً تاماً بحيث يمكن الاستغناء ببعضها القليل عن سائرها الكثير

٢

نتيجة تعليم اللاتيني واللغات الحية

يثبت لنا التحقيق البرلماني ان تسعة أعشار الطلبة عاجزون عن ان يترجموا دون استعانة بالمعجم أسهل الكتب . واذن فهم عاجزون عن قراءة الكتاب اللاتينيين. واذن فلا فائدة في البحث عن نفع هذه اللغة التي لا تستطيع الجامعة تعليمها [1]

عجيب جداً عجز الجامعة عن تعليم اللغات قديمها وحديثها . فان تعليم اللغات اسهل أنواع التعليم . فيجب ان تتعرف أسباب العجز عن هذا التعليم الذي كان يتقنه اليسوعيون قديماً . اهم هذه الاسباب وأعمها ان الاساتذة يتركون الطريقة النافعة في هذا التعليم . طريقة الترجمة . ويلجأون الى طريقة عقيمة هي أخذ الطلبة باستظهار كتب النحو والصرف وما فيها من الفروض والعلل التي لا تخطر الا لاساتذة الجامعة . فينسى الطالب كل هذه الاشياء غداة الامتحان . اما اللغة نفسها فليس في حاجة الى نسيانها لانه لم يتعلمها . وتدرس اللغات الحية بنفس هذه الطريقة فيكره التلميذ على ان يستظهر دقائق النحو . ولهذا يمضي الطالب سبعة أعوام أو ثمانية في درس لغة حية ثم لا يستطيع ان يقرأ في هذه اللغة كتاباً ما . وقد اتفق مع هذا مسيو « لافيس » «Lavisse» وآخرون من أعضاء لجنة التحقيق

٣

نتيجة درس الادب والتاريخ

تتبع الطريقة نفسها في درس الادب والتاريخ فتنتج النتيجة بعينها. يدرس الطالب ارقاماً واحكاماً معدة ودقائق لا خير فيها فلا يلبث ان ينساها غداة الامتحان

---

(١) ثم ينقل المؤلف رأي بعض الاساتذة في نتيجه تعليم اللاتينية وهو لا يخرج عما تقدم

ماذا يدرس في المدارس ؟ يكلف الطلبة حفظ احكام أعدها اساتذتهم . وقراءة كتب في النقد كتبها قوم أذكياء من المعاصرين ولكنهم ليسوا راسين ولا كورنيل ولا غيرهما من نوابغ الفرنسيين . واذن فالذي يكوّن تلاميذنا انما هي آثار اساتذتهم او كتاب من الطبقة الثانية . ولكنهم لا يقرأون آثار كتابنا والنابغين لا آثار كتاب اللاتينيين ولا اليونان . فاما انشاؤهم الفرنسي فليس له قيمة ما . فهم يكلفونهم الكتابة في موضوعات فنية اكثر مما ينبغي . فيحاول الطلبة الاشقياء ان يذكروا ما قال لهم الاساتذة في هذا الموضوع او ذاك

ولقد استبدل درس الآداب بدرس تاريخها . فاصبح الطالب لا يعرف حكم « لاروشفوكولد » وانما يعرف طبعاتها المختلفة

ان العالم يتقدم وان مسابقة الشعوب الاخرى ايانا لتنذرنا بالخطر وفي اثناء هذا الوقت يثرثر الاساتذة . كالبيزانطيين حين كان محمد الفاتح يحصرهم . كان العدو على اسوارهم وكانوا يثرثرون [1]

٤

نتيجة درس العلوم

تتبع الطريقة نفسها في درس العلوم . الفاظ وكتب معمدة دقيقة يحفظ عن ظهر قلب . فبدل ان يعنى في درس الكيمياء بان يدرس الطالب درساً حقيقياً منتجاً صيغ هذا العلم وقوانينه وطائفة من العناصر ذات الخطر فيميل الطالب الى هذا العلم ويعنى به فان الرأي الشائع يلزمنا ان نكلف الطالب ان يكون دائرة معارف في الكيمياء . فينتج من ذلك السأم اولاً والنسيان ثانياً . وكذلك الحال في الطبيعة . فليست العناية موجهة الى درس القوانين العامة وتفهمها وانما هي موجهة الى وصف الادوات المختلفة المركبة كأننا نريد ان نكون طلابنا عمالا . ونفس هذا العيب يوجد في الدروس جميعاً . سواء منها دروس العلم والادب وسواء منها دروس الادب القديم والحديث . وليست نتائج الدروس الرياضية خيراً من نتائج العلوم الاخرى [2]

---

(١) ثم يلخص المؤلف مقالا «للافيس» في هذا المعنى اعرضنا نحن عن ترجمته

(٢) ثم ينقل المؤلف رأياً لاحد مديري مدرسة السنترال بمعنى ما تقدم

٥

نتيجة التعليم العالي وروح الجامعة

يخرج التعليم العالي من برنامج هذا الكتاب ولكني مضطر الى ان اقول فيه كلمة لان التعليم الثانوي اذا كان قد وصل من النقص الى هذا الحد الذي بيناه فليس التعليم العالي ادنى منه الى الكمال . فكل بلد يرقى التعليم العالي فيه فلا بد من ان يكون التعليم الثانوي فيه راقياً ايضاً . فالتعليم العالي يمتاز عندنا بما يمتاز به التعليم الثانوي من استظهار الكتب وخزن النظريات التي تذهب بعد الامتحان . وكل الفرق بين طالب الهندسة ومدرسة المعلمين والحقوق وبين طالب المدرسة الثانوية هو ان ذلك يستظهر ويعيد اكثر مما يستظهر هذا ويعيد

تستخدم الذاكرة في جميع ضروب التعليم وهذا هو مصدر انحطاطنا وتفوق الاجنبي علينا . فان شبابنا على اختلاف منازلهم العلمية قد حفظوا اكثر مما حفظ الشبان الاجانب في كل شيء ولكنهم في الحياة الواقعة اقل منهم علماً وكفاية في العمل لانهم لم يستخدموا الا الذاكرة

وليس يظهر هذا الضعف في مناصب الحكومة التي يشغلها خريجو الجامعة . وانما يظهر بشكل مؤلم يوم يضطر هؤلاء الناس الى ان يلتمسوا لانفسهم وسيلة من وسائل العيش [1]

٦

رأي الجامعة في قيمة تعليمها

لقد قدمنا ما يدل على ان اساتذة الجامعة المستنيرين يشعرون بضعف مناهجهم التعليمية . ولئن كانوا كما قلت في المقدمة لا يشعرون بسبب هذا الضعف فشعورهم بهذا الضعف نفسه يكفي دليلا على قيمة تعلم الجامعة

وحسبنا ان ننقل بعض ما يقولون

« يخرج الطلبة من المدرسة وقد رأوا مختصرات كثيرة تمر امامهم وازدادوا معادن مختلفة من مواد غير قابلة للهضم . فهم لا يحسنون كتابة

---

(١) ثم ينقل المؤلف كلاما لاحد الضباط في نقد التعليم بمعنى ما تقدم

اللاتينية بل ولا قراءتها وهم لا يشعرون بشيء من جمال الآداب القديمة التي حاولوا ان يتفهموا بمشقة بعض نصوصها دون ان يقرأوا كتاباً كاملا من كتب هذه الآداب واكثرهم عاجز عن ان يكتب صفحة واحدة دون خطأ املائي وفي لغة فرنسية نقية » (١)

« ادرس اوراق امتحان الشهادة الثانوية واحضر بعض الامتحانات الشفهية لتعلم الى اي حد من العقم انتهت هذه الجهود الثقيلة التي بذلها اساتذة اكفاء مخلصون في ستة اعوام او ثمانية » (٢)

« اعتقد ان ثلاثة ارباع الذين نالوا الشهادة الثانوية يجهلون الاملاء . وربما لم يكن هذا الشر عظيما ولكن اذا كان تعليم الآداب لا يعصم من هـذا الشر فما قيمته ؟ ولست اشك في ان نصف اصحاب الليسانس في الحقوق والآداب يجهلون اسهل مسائل الرياضة وان اصحاب الليسانس في جميع اقسام التعليم يجهلون الجغرافيا . ولقد امتحنا طلاب المدرسة البحرية فعرفنا قيمة التعليم الثانوي . ولست ادري لمَ نلح في تسمية هـذا التعليم بهذا الاسم : فهو ليس ثانوياً ولا اولياً ولا عالياً . هو كل شيء وهو لا شيء . هو اثر من الآثار القديمة لا يلائم هذا العصر الحديث . هو أثر من آثار النظام القديم وقد فقد الحياة منذ ثلاثين سنة » (٣)

« هذا بالدقة هو مركز تعليم الآداب القديمة في هـذه الايام . ضعف هذا التعليم واحاط به الخطر من كل مكان فاصبح لا يبعث الثقة كما كان يبعثها قديماً واصبح يميل الى ان يكون نوعاً من الاختصاص بحيث تدرس اللاتينية واليونانية كما تدرس العبرية والهندية وتصبح احتكاراً لبعض الممتازين دون ان تؤثر في تكوين العقل الفرنسي او الذكاء الفرنسي او الخلق الفرنسي » (٤)

« لا اتردد في ان اقول رأيي بصراحة . وهو ان تعليم الآداب القديمة لا يلائم حاجات العصر وان الذين يعلمونها والذين يتعلمونها يرون هذا الرأي» (٥)

---

(١) التحقيق البرلماني ص ٣٩٢ جزء ٢ . لاتوليه دكتور في الآداب
(٢) « « ص ٤٤٩ جزء ١ منوفريه خريج مدرسة المعلمين
(٣) « « ص ٢٩٣ جزء ١ بيرار محاضر في السربون وممتحن في المدرسة البحرية
(٤) « « ص ١٧٠ جزء ١ رينه دوميك استاذ بمدرسة استانسلاس
(٥) « « ص ٣٦٧ جزء ١ برونو محاضر في السربون . (والان عميد قسم الآداب في السربون)

الفصل الثاني

النتائج الاخيرة لتربية الجامعة

اثرها في الذكاء والخلق

رأينا ان مناهج الجامعة لا تعلم الطالب شيئاً مما يشتمل عليه البرنامج . وأول نتائج التعليم القديم انما هو الجهل المطلق . ولكن أليس لهذا التعليم نتائج أخرى أقبح من هذا أثراً ؟ ألسنا مدينين لهذا التعليم بهذه الجماعات الكثيرة ذات العقول الفاسدة الحانقة التي فقدت مكانتها الاولى وأصبحت عدواً للجماعة ونظمها ؟ ألسنا مدينين لهذا التعلم بهذه الطوائف من رجال لا خلق لهم ولا ارادة ولا قدرة على شيء الا اذا أعانتهم الدولة ؟

لأجل ان نجيب على هذه المسائل يكفي ان ننقل بعض ما جاء في التحقيق البرلماني

ولقد قال بعض الذين كلفوا اختصار نتيجة التحقيق

« ان العيوب الاساسية للتعليم القديم تكرهه على ان يخرج للامة لا طبقة راقية خليقة بهذا الوصف بل جماعات من المتشوقين الى المناصب العامة وأدباء من الطبقة العشرين وقوماً لا طبعة لهم »

« أضف الى ذلك الامتحان الذي يختم هذا التعليم وهو امتحان الشهادة الثانوية التي أصبحت لكثرة المستبقين وسهولة الامتحان ورقة من أوراق النصيب . وقد عرف الطلبة ذلك حق المعرفة فهم يخرجون من مدارسهم مقتنعين بان شؤون الحياة كلها كالشهادة الثانوية ورق من أوراق النصيب» (١)

ولقد يستطيع كل الذين ساحوا ان يثبتوا صحة ما ننقله عن تقرير مسيو ريمون بونكريه وزير المعارف سابقاً : « لا أعرف شعوراً بالذلة أعمق من هذا الشعور الذي نجده حين نلقى الفرنسيين في البلاد الاجنبية . ليس هناك أشد

---

(١) ثم ينقل المؤلف كلاماً كهذا

حزناً من هذا . فان الفرنسي خارج فرنسا غريب حقاً . عاجز عن ان يجيب على أي مسألة »

وما سبب هذه الغربة ؟ سببها انه لم يتعلم قط ان يدير أمور نفسه اذا لم يجد من يديره . فهو لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً ولا يفهم شيئاً . ولقد ذكر مسيو پايو رأيه أمام لجنة التحقيق فقال : « انهم (أي الطلبة الفرنسيين) لا يعرفون ان يفكروا بأنفسهم لانهم كانوا طول حياتهم حقائب بولغ في حشوها فأصبحوا عاجزين عن التفكير . ثم ان هذه الطريقة نفسها تبغض اليهم القراءة . فهم لا يظهرون أي ميل الى ما نعلمهم وهم كالاطفال الذين أسرف أهلهم في تغذيتهم »

ومن الآثار السيئة لهذا التعليم عدم الاكتراث بالحياة الخارجية بحيث يشبه تلاميذنا المتوحشين الذين لا يحفلون ببدائع الحضارة . فكل شيء يتجاوز برنامج الامتحان لا وجود له . فاذا تحدث أمامهم متحدث عن حرب السبعين فهم لا يحفلون بهذه الحرب لانها ليست من موضوعات الامتحان . أمامهم اداة التليفون ينتفع بها الناس ولكنهم لا يحفلون بها لانها ليست موضوع الامتحان. ولعلك لا تصدق مثل هذه الغرائب ولذلك اعجل فانقل لك ما يؤيدها . ثم لا أنقل ذلك الا عن أشهر الناس وأبعدهم ذكراً (١)

هناك ظاهرة أخرى ترافق عدم الميل الى الاطلاع . وقد دهش لها رئيس لجنة التحقيق وان كانت في نفسها واضحة وهي ظاهرة النسيان الذي يعقب الامتحان فهؤلاء التلاميذ الاشقياء الذين كانوا يستظهرون يوم الامتحان نسب السانسنيين وبراهين الهندسة يعجزون بعد ذلك بأيام عن حل أيسر مسألة حسابية . ومن هنا هذه الحقيقة التي لا شك فيها وهي ان أصحاب الشهادة الثانوية يفشلون في المسابقات التي تعرضها بعض المصالح عن الذين يريدون الالتحاق بها فان نجحوا فمنزلتهم تلي منزلة تلاميذ المدارس الاولية (٢)

(١) ثم ينقل المؤلف كلاماً بهذا المعنى عن طائفة من العلماء

(٢) ثم يستشهد المؤلف على ذلك ببعض نصوص التحقيق البرلماني

الفصل الثالث

المدارس الثانوية

١

الحياة في المدارس الثانوية ـ العمل والنظام

كثر البحث منذ زمن طويل حول نظام التعليم الداخلي في المدارس الثانوية وهو بحث لا خير فيه لان الذين يتناولونه غير قادرين على الحكم عليه . وانما الذين يملكون ذلك حقاً هم آباء التلاميذ

فالمدرسة الثانوية تمثل في فرنسا بعض الحاجات والرغبات والشعور التي تجدها الاسرة . فان الاسرة اذا لم تحتفظ بطفلها أو لم تنزله عند بعض الاساتذة كما هي العادة في بلاد أخرى فذلك لانها لا تريد ذلك أو لا تستطيعه . واذن فلا بد من تغيير ارادة الاسرة قبل تغيير التعليم ولن تغير ارادة الاسرة بنظم وبرامج معلقة في الهواء . وليس من شك في ان المدارس الثانوية ثكنات عسكرية محزنة تفسد فيها الاجسام والعقول والاخلاق . وكل ما يمكن ان يقال دفاعاً عن هذه المدارس هو انها نتائج الضرورة . فيجب احتمال هذه الضرورة والتوفيق بينها وبين المنفعة حتى يتغير الرأي العام

ولعل التحقيق البرلماني الذي سننقل بعض نصوصه يعين على هذا . فهو يظهر لنا بنوع خاص مقدار صعوبة ما نحاول من اصلاح التربية عند الامم اللاتينية :

« تجد في المدارس الثانوية الكبرى أربعمئة أو خمسمئة أو ستمئة . بل ثمانمئة تلميذ يخضعون للنظام الداخلي . واذن فلا يمكن ان تكون المدرسة الا ثكنة عسكرية . وكل تلميذ منها رقم ومهما تكن عناية مدير المدرسة ومراقبيها فليس من سبيل الى ان يعرف أحدهما التلاميذ ولو بأسمائهم [1] » . « فاما

---

(١) التحقيق البرلماني جزء اول صحيفة ٢٦٧ . سأيل استاذ في السربون

المدرسة الثانوية التي تحتوي مئتين وألف تلميذ داخلي غير بضع مئات من التلاميذ الخارجيين فهي مكتظة . ولاجل الاحتفاظ بالنظام فيها لا بد من قواعد ضيعة ثقيلة كقواعد الثكنات ومهما يكن من شيء فكل ما يمكن انما هو اتباع العادة القديمة والسنة الموروثة [1] »

المدرسة الثانوية في جميع اطراف فرنسا خاضعة لنظام واحد دقيق . « في جميع المدارس الثانوية الفرنسية يستيقظ التلاميذ في ساعة بعينها وينامون في ساعة بعينها . ويأكلون في ساعة بعينها ويدرسون ويستريحون كذلك . وكذلك نظام الدرس فالبرنامج واحد والتمرين واحد وهذا كله منظم تنظيما دقيقاً [2] »

ساعات الدرس في المدرسة الثانوية اكثر مما ينبغي . اكثر من ساعات العمل المفروضة على المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة . وقوانين الصحة غير مراعاة في المدرسة . والطعام فيها بغيض

« أستطيع ان أحدثك عن نظام التعليم الداخلي من الوجهة المادية والعقلية والخلقية

فهو من الوجهة المادية سخيف . فاذا أحصينا الاوقات التي يقضيها التلميذ واقفاً في الهواء الطلق لم تتجاوز ساعتين ونصف ساعة . وظاهر ان هذا خطر بالقياس الى أشخاص هم في حاجة الى النمو . فقليل جداً ان يستمتع التلميذ بالهواء الطلق ساعتين ونصف ساعتين من يومه وليلته . اما رياضاتنا يوم الخميس ويوم الاحد فليس لها منفعة ولا لذة . يمشي التلميذ فيها متثاقلا في الشوارع والطرق . ثم يعود متعباً دون ان يستفيد . اما الطعام فسيء بوجه عام لانه يعد اعداداً رديئاً [3] »

---

(١) التحقيق البرلماني جزء اول صحيفة ١٥ . برتيلو السكرتير الدائم للمجمع العلمي

(٢) « « « « « ٣٨ لافيس استاذ في السربون

(٣) « « « ٢ « ٤١٧ بيكينيا معيد في مدرسة هنري الرابع الثانويه

ثم ينقل المؤلف كلاماً كثيراً في ان تلاميذ المدارس الثانوية الخاضعين للنظام الداخلي لا يستمتعون بالحرية

٢

ادارة المدارس الثانوية . المدير

قيمة المحال التجارية والصناعية رهينة بقيمة المشرفين عليها . وهذه حقيقة بدهية لا تحتاج الى اثبات . فيجب ان نقتنع بان قيمة المدرسة الثانوية رهينة بقيمة مديرها . وذلك حق واقع في مدارس رجال الدين . لا في مدارس الدولة . واليك السبب : لكل مدرسة ثانوية مدير يدير أمرها نظرياً . اما الحقيقة الواقعة فهي ان هذا المدير ليس الا كاتباً يعنى بالاعمال الحسابية ويخضع فيها لاوامر موظف الوزارة . ليس له سلطة ولا أمر . يتهمه رؤساؤه ويزدريه الاساتذة ولا يخافه التلاميذ فعمله عمل موظف لا مدير

« هو موظف تثقله الاعمال الادارية في المدارس الكبرى . ذلك ان حصر السلطة الذي يقتضي مسئولية الوزير عن كل ما يقع في اي مدرسة يكره هذا المدير على ان ينفق معظم اوقاته لا في ادارة المدرسة بل في اطلاع الوزير على امورها . فهو دائماً بين التقارير والمذكرات والاحصائيات ومكاتبات لا حد لها مع المفتش ورئيس الجامعة والوزير . فكيف يستطيع المدير مع هذا ان يعنى بكل تلميذ ويشرف على تربيته العقلية والخلقية ؟ اضف الى ذلك انه لا يملك من امر البرامج شيئاً . ولا يستطيع أن يوفق بين التعليم في مدرسته وبين حاجات المدينة او الاقليم . وانما هو محصور في ميزانيته كغيره من كتاب الحساب . وامر هذه الميزانية التي تقرها السلطة المركزية وحدها ليس بالقياس اليه الا امراً ادارياً كما قال المسيو بوانكاريه [1]

٣

النفقات التي تنفقها الدولة على المدارس الثانوية

من النافع ان نعرف ما يكلفنا هذا التعليم . ولا سيما اذا قارنا بينه وبين تعليم رجال الدين

---

(١) التحقيق البرلماني جزء٢ صحيفة ٦٨٦ . ليون بورجوا وزير المعارف سابقاً . ثم ينقل المؤلف كلاماً كثيراً في معنى هذا

من القواعد العامة المعروفة التي بيناها في غير هذا الكتاب ان كل ما تدبره الدولة من الاعمال العامة سواء أكان سككا حديدية ام سفناً ام شيئاً غير ذلك يكلف الدولة خمسة وعشرين الى خمسين في المئة أكثر مما تدبره الجماعات الخاصة او الافراد . ولا تفلت المدارس الثانوية طبعاً من هذا القانون . فبينما مدارس رجال الدين التي لا تتناول اعانة ما تحقق ارباحاً لا بأس بها تخسر الدولة مقادير باهظة من المال في تدبير مدارسها

« لاحظت ان الدولة تنفق في المدارس الاولى (Colleges) ٧٥ فرنكا على كل تلميذ . و ٣٠٠ فرنك على التلميذ في المدارس الثانوية . و ٤٩٥ فرنكاً على طالب الجامعة . وذلك بمقتضى ميزانية سنة ١٨٩٥ . واذن فالدولة تنفق نفقات ضخمة جداً على ابناء الطبقة العليا بالقياس الى ما تنفق على التعليم الاولي (١)

وما مصدر هذه النفقات الباهظة ؟ اليك اسبابها الاولى . اولاً الترف الذي لا خير فيه . فان المهندسين يرون انه لا بد من بناء ثكنات فخمة . المظاهر وحدها موضع العناية كشأن تعليم الجامعة . ولكن هذه المظاهر تكلفنا كثيراً ولقد لاحظ مسيو ساباتيه ان مدرسة « لاكانال » التي تؤوى ١٥٠ تلميذاً قد كلفت الدولة اكثر من عشرة ملايين من الفرنكات . فمأوى كل تلميذ يتكلف ٧٥٠ فرنكا . وكانت الدولة تستطيع ان تعطي لكل تلميذ بنفس هذا الاجر منزلا صغيراً مستقلا يؤويه ويؤوي اسرته ايضاً

وهنالك أسباب اخرى . واذ كانت القواعد متفقة في جميع المدارس فالنفقات متساوية . فالدولة تعين الاساتذة حتى اذا لم يوجد تلاميذ . فبعض الاساتذة ليس لديهم الا خمسة تلاميذ . ومثل هذا كثير وليس من السهل ان تصور اسرافاً كهذا

وهناك سبب آخر وهو ان المدير لا خير له في الاقتصاد وربما كانت منفعته في ألا يقتصد . فهو ان اقتصد عقد العمليات الحسابية . واذن فاول نتيجة هو تضييق ميزانية المدرسة تضييقاً لا سبيل الى الخلاص منه مهما تدع الحاجة الى ذلك

---

(١) التحقيق البرلماني جزء ٢ صحيفة ٤٢٧ . بروكار معيد في مدرسة كوندورسيه

الفصل الرابع

الاساتذة والمعيدون

١

الاساتذة

رأينا فيما مضى حال المدارس وادارتها فبقي ان نرى أساتذتها معتمدين في ذلك كما اعتمدنا في غيره على التحقيق البرلماني

الاستاذ رجل يعلم فيجب اذن أن يحسن فن التعليم . ولكن أساتذتنا لم يدرسوا هذا الفن بل هم يجهلونه الجهل كله . حفظوا أشياء كثيرة ولكن أكثرهم لا يستطيعون ان يعلموا شيئاً مما حفظ وهذا ما تدل عليه شهادة نفر أعظم رجال الجامعة قدراً وأبعدهم صيتاً

وقد أثبت مسيو ليون بورجوا ان السبب الاول في عجز الاساتذة انما هو سوء الاستعداد لشهادة الاستاذية فقال : « يجب ألا تكون شهادة الاستاذية درجة من درجات التعليم العالي بل شهادة بحسن الاستعداد للتدريس في المدارس الثانوية . ولكنها تستحيل من وقت الى وقت الى مسابقة بين طائفة من العلماء والاختصاصيين . والشر كل الشر في هذه الكلمة الاخيرة التي تقضي على نظام التعليم عندنا »

ولقد أستطيع ان أبين قيمة اساتذتنا في التربية بان اختصر ما يأتي من رأي بعض الذين تكلموا أمام لجنة التحقيق . « كثير جداً من الاساتذة لا يعرفون فن التعليم . يعلمون كل شيء الا صناعتهم او الجزء العملي من هذه الصناعة . فليس الخير في ان نحشو رؤوس الطلبة بمسائل العلم دون ان تبين لهم علل الاشياء . يجب ان نعلمهم التفكير . لا ينبغي أن نمرن الذاكرة وحدها بل ينبغي أن نمرن معها العمل . والنقص الاساسي الذي يمتاز به تلاميذنا اليوم انما هو من هذه الناحية »[1]

(١) التحقيق البرلماني جزء ٢ صحيفة ٥٠٥ حوكيه مدير مدرسة الـ...

وهذا أشد خطر التعلم عندنا فان الذين تخرجهم الجامعة اساتذة كانوا او طلبة ينقصهم حسن التفكير . مع ان الغاية العظمى للتعلم انما هي تنمية العقل وتعويده حسن التفكير والحكم (١)

وربما استطاع الاساتذة ان يخلصوا انفسهم من هـذه التبعة ويلقوها على الذين علموهم فهم لم يوجدوا أنفسهم وانما أوجدهم اساتذتهم . واذا كان هناك عيب في مناهجهم التعليمية فليس ينبغي ان يؤخذوا بهذا العيب لانهم لم يوجدوه . وفي الحق ان الاساتذة يكونون طائفة محصورة كطائفة الجند ورجال القانون وهم محافظون مبالغون في محافظتهم لا يقبلون الجديد الا اذا أقره زعماء منهم لهم مكانة عليا . وهم لذلك مقلدون لا يخترعون شيئاً الا تعقيد الاشياء . فاذا أراد واحد منهم ان يمتاز تورط في أشياء لا خير فيها

ثم يحاول المؤلف ان يبين اسباباً أخرى دعت الى عجز الاستاذ عن النفع . فيذكر كلاماً كثيراً وينقل كلاماً كثيراً ونستطيع نحن ان نلخص هذا وذاك في ان اكثر الاساتذة يخرجون عادة من الطبقات الدنيا . فليست لهم تربية قوية ممتازة وليست المدارس قادرة على ان تعوض عليهم هذه التربية التي لم يجدوها في الاسرة . ومن هنا ينقص اعتبار الناس لهم وتقديرهم اياهم ويشعر الاساتذة بهذا النقص فيسخطون على الجماعة ويمقتونها ويضطرهم ذلك الى ان يؤدوا اعمالهم بطريقة آلية غير معني بها فيستحيلون الى عمال آليين كغيرهم من الذين يعملون في مصالح الدولة . بينما اساتذة المدارس التي يقوم عليها رجال الدين يبرأون من هـذا العيب لان تربيتهم الاولى قد تسوء ولكن تربيتهم المدرسية بحكم صناعتهم الدينية منظمة متقنة تعودهم ان يكونوا من مراعاة الآداب والبيئات المختلفة بحيث يستطيعون ان يجالسوا ويعاشروا أرقى الطبقات دون ان يشعروا بضعة او يكونوا موضع ازدراء . فالعيب الاساسي الذي يحول بين اساتذة الدولة وبين النفع هو سوء التعلم من جهة وسوء التربية من جهة أخرى . ويلاحظ المؤلف ان لهذه القاعدة استثناء ولكنه لا يكاد يذكر . ويود المؤلف لو شجعت الدولة هؤلاء الافراد القليلين الذين يشذون عن القاعدة

(١) ثم ينقل المؤلف كلاماً في معنى ما تقدم

٢

المعيدون

لا يكاد المعيد يعنى بغير مراقبة التلاميذ . واذ كان شديد الاتصال بالتلاميذ فقد يستطيع ان يؤدي الى التعليم خدمة قيمة لان حظه من التعليم عظيم غالباً

ولـكنه من الوجهـة العملية مقصور على مراقبة الطلبة يزدريه الاساتذة ويكرهه التلاميذ ويشك فيه المدير . فحياته شاقة لا تحتمل

وقد يوجد بين هؤلاء المعيدين أفراد يحاولون النفع ويجتهدون فيه فيتحببون الى التلاميذ ويجتهدون في ارشادهم . ولـكن الادارة تشفيهم من هذه العلة لانها تشك فيهم وتضطرهم الى ان يسيروا سيرة غيرهم . ولقد قرأت في بعض الصحف ان معيداً وبخ لانه صافح تلميذاً . وآخر طرد لانه شارك تلاميذه في الالعاب الرياضية

ولا ينبغي ان تظن ان هؤلاء المعيدين آلات وان اعتبروا كذلك . فاكثرهم قد نال شهادة الليسانس وكثير منهم وصل الى الدكتوراه

وربما كان احسن اصلاح عرض على لجنة التحقيق في هذا الموضوع هو الغاء الفرق بين الاستاذ والمعيد بحيث لا يكون الاستاذ استاذاً الا اذا اشتغل بالاعادة خمسة أعوام او ستة يمرن في اثنائها على فن التعلم . وقد أضيف ان تعليم المعيد ربما كان أنفع من تعليم الاستاذ لان رأس المعيـد أقل امتلاء بالمعلومات الجوفاء من رأس الاستاذ

فاذا كان القـارىء قد أنعم النظر في هـذا الفصل والفصول التي سبقته وعرف المدرسة الثانوية وعيوبها فلست أشك في انه يقتنع بان ما يقترح الآن من الاصلاح ليس شيئاً بالقياس الى الاصلاح الصحيح العميق الذي نحتاج اليه والذي لا نريد أو لا نستطيع ان نتكلم فيه . لان الرأي العام غير مستعد له

الفصل الخامس

التعليم في مدارس رجال الدين

عني التحقيق البرلماني بهذه المدارس فذكر اشياء كثيرة يعرفها الناس جميعاً ولكنه أظهر أشياء ما كان احد يفترض امكانها . فلم يكن احد يعلم ان « جماعة الفرير » التي كانت مقصورة على التعليم الاولي قد عنيت بالتعليم الثانوي والعالي ونافست فيهما الجامعة منافسة خطرة . فلها ثلاثون مدرسة يعطى فيها التعليم الثانوي وأثبت الاحصاء ان تسعة أعشار الذين يتقدمون من مدارسها الى السنترال يقبلون في هذه المدرسة وظهر ان مدارسها التجارية والصناعية متفوقة وظهر ان لها طائفة كبيرة من المزارع تدرس فيها الزراعة درساً عملياً منتجاً وظهر ان هذه المدارس على اختلافها لا تخسر كما تخسر مدارس الدولة بل تعود على اصحابها والمعينين على انشائها بالربح العظيم

على ان هذا كله قديم . وقد شعرت الجامعة بعجزها عن منافسة هذه المدارس فوفقت الى الغائها . واضطر أساتذة هذه المدارس الى ان يحملوا مناهجهم التعليمية الى البلاد الاجنبية التي تقبلتهم قبولا حسناً

ولقد أثبت التحقيق فوز هذه المدارس ولكنه عجز عن تعليله . ومع ذلك فتعليله يسير لان رجال الدين قد اتخذوا لانفسهم مثلا أعلى في التعليم . فهم يحرصون على الوصول الى هذا المثل الاعلى . وهم لذلك مخلصون مقتنعون جادون فيما يحاولون . فهم اساتذة ومراقبون . وقد يكون المثل الاعلى الذي اتخذوه لانفسهم خاطئاً في رأي العلم والفلسفة ولكن قيمته ليست في أنه خاطئ او مصيب . وانما هي في الاثر الذي يتركه في النفس وهو عظيم . وقد كان الناس يشعرون بقيمة هذا التعليم فيبعثون بابنائهم الى هذه المدارس سواء في ذلك من آمن ومن ألحد . ومهما تحاول الدولة محاربة هذا التعليم فلن تفلح . وكل ما تصل اليه انما هو ان يغير هؤلاء الناس أزياءهم

نعم ان انتشار روح الكنيسة خطر في بلد منقسم كفرنسا . ولكن ليس الى اتقاء ذلك من سبيل . فقد تحاول الدولة كما عرض ذلك ان تحرم مناصبها

على الذين لم يدخلوا مدارسها الثانوية . ولكن رجال الدين يخلصون من هذا القيد بارسال تلاميذهم الى المدارس الثانوية الحكومية ساعات معينة حتى يحصلوا على شهادات الدولة . وهب الدولة وصلت الى ما تريد . فاغلقت هذه المدارس فان نتيجة ذلك خطرة من وجهين : الاول ان أسر التلاميذ الذين كانوا يرسلون الى هذه المدارس سيكرهون الدولة ويحقدون عليها . الثاني ان اغلاق هذه المدارس سيقضي على المنافسة النافعة التي تحث الجامعة على العمل وتحول بينها وبين السقوط الى شر مما هي فيه الآن[1]

لست متهما بالميل الى الكنيسة فيما أظن . ولكني لو كنت وزيراً للمعارف لوضعت على رأس التعليم الاولي والثانوي مدير مدارس الفرير على ان يجتنب التدخل الديني في التعليم لتكون اسر التلاميذ حرة من هذه الناحية

(١) ثم يستدل المؤلف على صحة هذه الآراء بنصوص ينقلها عن التحقيق البرلماني

الكتاب الرابع

الاصلاح المقترح والمصلحون

الفصل الاول

المصلحون ـ اصلاح الاساتذة ـ انقاص ساعات العمل ـ التربية الانجليزية

١

المصلحون

رأينا فيما تقدم ان الذين تكلموا امام لجنة التحقيق قد اظهروا ببلاغة لا حد لها نقص التعليم في الجامعة . فلما طلب اليهم أن يعرضوا طرق الاصلاح لهذا التعليم نضبت ينابيع هذه البلاغة وظهر ان أكثرهم عاجز عن اقتراح هـذا الاصلاح . فاخذ بعضهم يشير بتغيير البرامج الذي لا خير فيه . وأخذ بعضهم يقدم نصائح عامة غير محدودة . وأخذ بعضهم يقدم اقتراحات في الهواء ليس الى تحقيقها من سبيل . فمن الحسن مثلا أن نقول كما قال مسيو جريار رئيس الجامعة في باريس « يجب أن تختلف البرامج وتمرن صورة التعليم الثانوي . ولكنك اذا أردت أن تفهم معنى هذه الجملة أو تحققه لم تصل الى شيء . ولقد يلاحظ ان النقاد الذين كانوا أشد الناس قوة في نقد التعليم والسخط عليه قد ظهروا أشد الناس عجزاً عن اصلاح التعليم

ومن الصعب أن تتبع « جول لمتر » فيما اقترح من ترك الحرية المطلقة للاستاذ يعلم ما يشاء كما يشاء . ولقد انتهز النقاد فرصة هذا التحقيق فاكثروا من الكلام وافتنوا فيه ولكن في غير فائدة ولا جدوى وأحس الاساتذة انفسهم ذلك فاعلن بعضهم امام اللجنة ان كل هذه الاقتراحات التي قدمت والتي

تقدم قد فشل بعضها ولا بد من أن يفشل بعضها الآخر وانه سمع بعض الاساتذة يتمنون الا يقترح عليهم اصلاح ولا تغيير . ومصدر هذا كله ما قلته غير مرة من هذا الخطأ اللاتيني الذي يخيل الى الناس القدرة على تغيير ما ليس الى تغييره سبيل . فنحن لا نستطيع تغيير نظم التعليم الا بالمقدار الذي نستطيع به تغيير النظم السياسية والاجتماعية أو تغيير العقائد الدينية أو تغيير الادب واللغة هذا قانون لا نستطيع التخلص منه . واذن فكل هـذه الاقتراحات التي ترمي الى اصلاح التعليم جملة انما هي ضرب من الثرثرة . فليس من سبيل الى اصلاح التعليم الا اذا أصلحت نفس الاستاذ والتلميذ والاسرة . وانما الخير في هذا وفي غيره من ضروب الاصلاح انما هي هذه التغييرات الجزئية التفصيلية التي تقع شيئاً فشيئاً وكأنها حبات الرمل يضاف بعضها الى بعض فيتكون منها الجبل على مر الايام . بل ان نفس هذا التغيير الجزئية المتوالية لا تنتج الا اذا لوحظت فيها الضرورات وتطورات الرأي العام . فان ارادة الاسر وعقائدها ذات سلطان قوي على التربية . وسنحاول أن نختصر من هذه الاقتراحات الكثيرة التي قدمت الى لجنة التحقيق طرقاً للاصلاح ربما كانت مفيدة بعد زمن طويل اي بعد أن يتغير الرأي العام . واليك أهمها

٢

اصلاح الاستاذية

لا اعتقد ان هذا الاصلاح ممكن الآن ولكني اذكره مع ذلك لانه عظيم الخطر ولانه اذا تحقق أنتج نتائج كبرى . اهمها اثنتان : الاولى الغاء شهادة الاستاذية . والثانية اختيار الاساتذة بطريقة غير هذه الطريقة المألوفة . فاما الغاء شهادة الاستاذية فنافع جداً . فقد رأينا ان الاستباق الى هذه الشهادة يفسد على الاساتذة أمرهم ويكون منهم اختصاصيين حين لا يحتاج التعليم الثانوي الى الاختصاصيين في حفظ الكتب واعادتها وانما يحتاج الى المربين . والخير ان لا تبقى هـذه الشهادة الا بالقياس الى التعليم العالي وان كنت أفضل الطريقة الالمانية التي تختار اساتذة التعليم العالي بمقتضى أعمالهم الشخصية ونجاحهم في التعليم الحر . هذه الطريقة الالمانية تخرج أساتذة قادرين على ترقية العلم

لا حفاظاً قادرين على استظهار الـكتب . على اننا انما نعني هنا بالتعليم العالي دون غيره . الخير اذن في الغاء شهادة الاستاذية وفي أن يختار الاساتذة بين المعيدين . فقد قلنا ان التعليم الثانوي ليس في حاجة الى اختصاصيين وآية ذلك الاساتذة في مدارس رجال الدين فاكثرهم لم يتجاوز الليسانس . وأكثر المعيدين عندنا قد حصلوا على هذه الشهادة فليس ما يمنع من أن يكون المعيد مرشحاً لمركز الاستاذ بعد سنين يقضيها في الاعادة والتمرين على أن يسمح له بالتدريس في غيبة الاستاذ حتى يتم تمرينه . فاذا بلغ من ذلك حظاً رقي الى مركز الاستاذ وفوائد ذلك كثيرة منها زوال هذه الفروق بين الاستاذ والمعيد . ومنها ان الامل يحث المعيد والاستاذ على العناية بعملهما . ومنها ان الاستاذ لا يكون استاذاً الا بعد أن يكون قد خبر التلاميذ واحسن بلاءهم أي بعد أن يكون قد أصبح مربياً حقاً . فاما مراقبة التلاميذ في النزهة والاكل والنوم وما الى ذلك فيحسن ان يكلفه صف الضباط الذين اعتادوا النظام والدقة فيه . هذه اقتراحات وزير من خير وزرائنا الذين أشرفوا على التعليم وهو المسيو ليون بورجوا عرضها على استحياء . ولم أزد أنا على ان فصلتها [1]

٣

انقاص ساعات العمل

هـذا الاصلاح نافع جداً لان من المحقق ان التلاميذ يمضون في الدرس اثنتي عشرة ساعة دون أن يشتغلوا كل هذا الوقت لان من المستحيل أن يشتغل العقل اثنتي عشرة ساعة متصلة . ولـكن تحقيق هذا الاصلاح غير ميسور ان لم يكن مستحيلاً لان السبب الذي يدعو الى بقاء التلاميذ في غرف الدرس هذه المدة الطويلة انما هي الحاجة الى التخلص من مراقبتهم . فالاسرة تريد ان تخلص من طفلها ومدير المدرسة ومراقبها يريدان أن يخلصا من هذه المراقبة وكذلك الاستاذ . واذن فليس هناك من سبيل الا حبس التلاميذ جلوساً في غرف الدرس . ولقد تقرر قبول هذا الاصلاح فانقصت ساعات العمل ولـكي

---

(١) ثم ينقل المؤلف كلام المسيو بورجوا وغيره في هذا المعنى

واثق بان التلاميذ لن يستفيدوا منه شيئاً لانهم لن ينفقوا أوقات الفراغ في النزهة والتمرين وانما هم مضطرون الى أن ينفقوه جالسين في غرف المذاكرة

٤

التربية الانجليزية

عرض بعض المصلحين ولكن في ضعف واستحياء ادخال التربية الانجليزية في مدارسنا . وسكت عن هذا الاقتراح أنصار هذه التربية الذين أكثروا القول فيها والاعجاب بها . ومع اني من أشد الناس اعجابا بهذه التربية وقد تكلمت عنها كثيراً في كتبي قبل أن يقوم بنصرها هؤلاء الانصار . فانا أعتقد انها لا تلائم حالنا لانها تخالف مزاجنا وطبائعنا وارادة الاسرة وما ورث التلاميذ عن آبائهم وتقتضي قبل كل شيء تغيير نفوس الاساتذة والتلاميذ والاسر . والادلة على ذلك قائمة . فقد فشلت كل المدارس التي حاولت تقليد المدارس الانجليزية فاقامت مبانيها في الريف واتخذت للتربية الريفية عدتها . فشلت هذه المدارس سواء أكانت من مدارس الدولة أم من المدارس الحرة أم من مدارس رجال الدين [1]

---

(١) ثم يذكر المؤلف اسماء طائفة من هذه المدارس وينقل آراء بعض الكتاب في هذا المعنى

الفصل الثاني

تغيير البرامج(١)

الفصل الثالث

مسألة اليونانية واللاتينية

١

نفعهما

معروفة هذه المناقشات التي لا حد لها والتي دارت منذ ثلاثين سنة حول اليونانيـة واللاتينية ونفعهما . وقد دخلت هـذه المناقشات الآن في طورها اللاشعوري الذي لا يدخل فيـه العقل . ومع ذلك فان كثرة هذه المناقشات قد زعزعت سلطان اللغتين فلم يبق لهما من مدافع عنهما الا الآباء الذين يتأثرون بالصور والخيالات والا بعض التجار الجهلة والاساتذة الذين يعيشون منهما . على ان هؤلاء المدافعين أنفسهم يترددون الآن في الدفاع ويرون ان تعليم هاتين اللغتين في الجامعة قد أصبح قليـل النفع لانه بلغ من السوء ان أصبح التلاميذ يدرسون هاتين اللغتين سبعة أعوام أو ثمانية فلا يكادون يخلصون من الامتحان حتى ينسوا كل ما حفظوا . على ان أقوى الادلة التي تستعمل لتأييد هاتين اللغتين هو ما تحدثه الآداب اليونانية واللاتينية من أثر حسن في التربية وتقويم الخلق الى غير ذلك من هـذه الآراء التي لا مصدر لها الا قدم العهد

---

(١) أعرضنا عن ترجمة هـذا الفصل لشيئين : أحدهما انه لا يشتمل على شيء جديد . فكل ما فيه هو ما سبق المؤلف الى ذكره غـير مرة من ان تغيير البرامج لا يفيد الا اذا تغيرت المناهج . الثاني أنه يشتمل على تفصيلات لنظام المدارس الفرنسية يصعب فهمها على الشرقيين الا اذا فصلت لهم تفصيلا تاماً وذلك شيء يحتاج الى كتاب برمته على انه غـير نافع ولا مفيد

بهاتين اللغتين على انه من اليسير ان تتنبأ بان هذا الأثر الحسن لا خير فيه منذ الآن فان رجالا اكفاء قد أظهروا في التحقيق البرلماني ان هذه المزايا موجودة في اللغات الحية التي تمتاز بشيء آخر وهو النفع العملي [١] .

ولقد يدفع بعضهم عن اللاتينية بالحاجة اليها في درس الحقوق . ولكن هذا الدفع لا فائدة فيه فليس من قوانيننا ما بينه وبين الفقه الروماني صلة الا القانون المدني واكثر طلاب الحقوق ليسوا من اتقان اللاتينية ولا من الرغبة فيها بحيث يريدون أو يستطيعون قراءة الفقه الروماني . وليس ينبغي ان تذكر الحياة القديمة للترغيب في درس الآداب القديمة . فليس في هذه الحياة ما ينبغي ان يحب . وحسبك انها كانت حياة قسوة واستبداد فلم يعرف القدماء الحرية ولا الديمقراطية . وانما كانت حكوماتهم كلها على اختلاف اطوارها وعصورها حكومات ارستقراطية تتسلط فيها اسر غنية على شعوب منحطة . وكانت هذه الحكومات تجهل الحرية الدينية والسياسية والشخصية بل كانت تنكر الشخص انكاراً تاماً وتفنيه الافناء كله في الدولة فلس له ان يحيا ولا ان يعمل ولا ان يفكر الا للدولة . وقليل جداً خطر هذه الآداب القديمة التي يضيفونها الى القدماء ويزعمون انها تشتمل على الافكار العامة التي لا بد منها لتكوين العقل . فاكثر هذه الآداب ليس شيئاً مذكوراً وكل ما اشتملت عليه موجود في آداب القرن السابع عشر . على ان نفع هذه الآداب رهين بالقدرة على درسها وتفهمها . وقد أثبتت النصوص الرسمية ان التلاميذ لا يقرأون من الآداب اللاتينية شيئاً يذكر . اما الآداب اليونانية فمجهولة جهلا تاماً وكل ما يدرس انما هو طرف من النحو . ولقد قامت ضجة حول هاتين اللغتين في المانيا كالتي قامت في فرنسا . مع ان درس الالمانيين لهاتين اللغتين أنفع وأشد اتقاناً من درسنا .

---

(١) ثم ينقل المؤلف كلاماً كثيراً في معنى ما تقدم من ان اللغتين القديمتين لا خير فيهما الآن لسوء تعليمهما وامكان الاستغناء عنهما باللغات الحديثة من جهة وبدرس العلوم المختلفة من جهة أخرى

٢

رأي الاسر في درس اللاتينية واليونانية

ظهر مما تقدم ان درس اللاتينية واليونانية لا يفيد لان هاتين اللغتين يمكن الاستغناء عنهما باللغات الحية ولان درسهما حتى اذا كان نافعاً بعيد كل البعد عن الاجادة والاتقان . واذن فالوقت الذي ينفق في هذا الدرس ضائع ويمكن الانتفاع به في درس العلم واللغات الحديثة . ولكن هذا مستحيل التحقيق لان هناك حائلا قوياً يحول بيننا وبينه وهو رأي الاسر . لان هذه الاسر تقوم عقبة في سبيل التجديد وتحرص الحرص كله على هذا الدرس القديم . فاذا بحثت عن أسباب هذا الحرص وجدت ان الطبقة الوسطى في فرنسا شديدة المحافظة فهي لا تميل الى الجديد وهي لا تستطيع ان تتصور ان يجهل أبناؤها اللاتينية التي درسها الآباء والاجداد . وللاسر ميل شديد الى هذه اللغة مصدره الغرور أيضاً . فان هذه الاسر ترى في درس اللاتينية شيئاً من الشرف يميزها من الطبقات المنحطة . والاطفال أنفسهم يحرصون على اللاتينية غروراً وحباً في التفوق على اخوانهم الذين لا يدرسون هذه اللغة . والامر ليس موقوفاً على الاسر لان السلطة العامة تشاركها فيه فهي لا تبيح أصغر مناصبها الا لمن احرز الشهادة الثانوية وحصل على حظ من اللاتينية . ذلك في فرنسا . اما في المانيا فان الطبقة الوسطى أقل محافظة لانها تخرج من طبقات الشعب وعهدها بحياة الشعب قريب ولذلك تميل هذه الطبقة الى العلوم والى الصناعة اكثر من ميلها الى درس اللغات القديمة . ولقد لاحظ رئيس لجنة التحقيق ان أشد الناس حرصاً على درس اللغات القديمة بعد الجامعة هم أعضاء الغرف التجارية في المدن المختلفة . فقد أجمعوا على وجوب الاحتفاظ بهذا التعليم . واذن فقد يكون من الخير العدول عن هذا التعليم ولكن ليس الى هذا العدول من سبيل حتى تتغير آراء الاسر

على ان من اليسير التوفيق بين المنفعة وبين آراء هذه الاسر . فلا حاجة الى الغاء اللاتينية واليونانية ما دام هذا الالغاء مستحيلا . ولكن لا حاجة الى اضاعة الوقت فيهما ما دام هذا لا يفيد . واذن فنستطيع ان نحتفظ بالمظاهر

ارضاء للرأي العام . لان الرأي العام يرضى بالقليل . يرضى بالالفاظ ولا تعنيه الحقائق . فلنحتفظ له بالالفاظ ولنبق تعلم اللاتينية واليونانية ولكن ساعة في الاسبوع ليس غير . في هذه الساعة يلم الاستاذ بالاصول اللاتينية واليونانيــة للغة الفرنسيــة وببعض النصوص اللاتينيــة التي جرت العادة باستظهارها ثم تنفق بقية الوقت في درس العلم واللغات الحية وفي قراءة الآداب اللاتينية واليونانية نفسها مترجمة الى لغتنا . فهذه الطريقة أنفع من اضاعة الوقت في درس النحو اللاتيني واليوناني . وترجمة قطع متفرقة من هاتين اللغتين وحسبك ان التلاميذ سيعرفون هذه الآداب بواسطة التراجم مع انهم لا يعرفون منها شيئاً بواسطة النصوص الاولى التي لا يفهمونها ولا يقرأونها . وكثير من رجال الجامعة يرون هذا الرأي وربما كان من الخير أيضاً ان يعمم درس اللاتينية واليونانية بهذه الطريقة بحيث يتناول الطبقات جميعاً : فهو على فائدته التي قدمتها ينتج فائدة أخرى وهي ان الطبقة الوسطى التي تحرص على اللاتينية كانها امتياز ستزهد فيها عند ما ترى الطبقات الدنيا تلم بها وتستظهر نصوصها كما يفعل الاغنياء . ولكني أشك في قبول هذه الطريقة فنحن لا نحب الاصلاح السهل التدريجي وانما نحب الاصلاح الضخم تصدر فيه القوانين واثقين بانه لا يفيد

الفصل الرابع

مسألة الشهادة الثانوية وشهادة الدراسة

١

اصلاح الشهادة الثانوية

ظهرت النتائج السيئة التي ينتهي اليها التعليم القديم . فما أسرع ما عمل العقل اللاتيني في استكشاف الداء ووصف الدواء . وما أسرع ما استعمل في ذلك المنطق اللاتيني السهل الساذج الذي لا يتعمق في الاشياء ولا يفهمها بطبيعة الحال كما ينبغي

واذن فقد استكشف الداء وهو الشهادة الثانوية التي حملت كل التبعة وباءت بالشر واللعنة . ووصف الدواء وهو سهل : هو الغاء هذه الشهادة . ولم يقف الامر عند هذا الحد . بل وضع بسرعة مدهشة مشروع قانون قدم الى مجلس الشيوخ . وهو عريب جداً لانه يلغي الشهادة الثانوية ويعيدها في وقت واحد على الطريقة اللاتينية التي تغير الالفاظ وتحسب انها قد غيرت المعاني

الغيت اذن الشهادة الثانوية ووضعت مكانها شهادة اخرى سميت شهادة الدراسة كما هي العادة في المانيا . ولم يفكر واضعو هذا المشروع في ان لفظ الشهادة الثانوية أو شهادة الدراسة ليس من شأنه أن يغير مناهج التعليم ونتائجه وفي الحق انهم قد استغنوا عن امتحان الشهادة الثانوية بطائفة من الامتحانات السنوية تسمى امتحانات المرور ويؤدى امام لجان تعقد في كل سنة . فكأنهم قد استغنوا عن امتحان واحد بامتحانات عدة . وقد بينت في غير هذا الفصل ان نتيجة هذا الاصلاح لا يمكن أن تكون خيراً . ذلك لان عدد الساقطين في هذه الامتحانات التي تؤدى في كل سنة سيكثر ويتضاعف فتفقد المدارس الثانوية نصف تلاميذها وتخسر الدولة بذلك خسارة فادحة تضطر أمامها لجان الامتحان الى التسامح وقبول من لا يستحق أن يقبل فيعود الامر كما كان

٢
رأي الاساتذة في الشهادة الثانوية

مع ان هذه الشهادة الثانوية أثر من آثار التعليم لا مؤثر في هذا التعليم فقد اشتدت عليها حملة الاساتذة جميعاً . كلهم يمقتها ويرى انها مصدر الشر حتى استطاع مسيو « لافيس » أن يصفها بالاجرام . وذلك معقول فان أساتذة الجامعة يجدون أنفسهم أمام تعليم سيء من غير شك . ولكنهم لا يستطيعون أن ينصفوا فيلقوا تبعة هذا التعليم السيء على أنفسهم واذن فهم يلقون هذه التبعة على هذه الشهادة التعسة . ولهم في ذلك فنون . فمنهم من ينكر الشهادة لان الطلبة لا يحسنون الاستعداد لها . ومنهم من ينكرها لان الطلبة يغشون حتى استطاع مسيو « بوانكاريه » أن يصف الامتحان بانه مفسد للاخلاق . والحق ان مصدر الشر كله انما هو كثرة المواد وسوء تعليمها فالاساتذة لا يعنون الا بشيء واحد وهو أن يكوّنوا من التلاميذ دوائر معارف وهم يزيدون في كل يوم مقدار ما ينبغي أن يحفظه الطلبة . فليس عجيباً أن يعجز الطلبة عن أن يسيغوا هذه المقادير الضخمة التي يكلفون ازدرادها . فكل طالب ينبغي أن يعرف كل شيء اللاتينية واليونانية والفرنسية ولغة أجنبية حية والتاريخ والجغرافيا والرياضة والطبيعة والكيمياء والفلك والتاريخ الطبيعي واشياء أخرى لا تحصى . وينسى الاساتذة ان كل واحد منهم اذا تجاوز اختصاصه العلمي ليس أقل جهلا من تلميذه بل ربما كان أشد منه جهلا

على ان التلاميذ يحسنون التخلص من هـذا فهم لا يستعدون للامتحان وانما يستعدون للتخلص من الممتحن . فهم يدرسون المسائل التي تعود أن يلقيها فلان وفلان على التلاميذ .وقد بلغ من شأنهم في ذلك ان أحدالاساتذة تعود ان يقسم نبوغ « كرنيل » الى خمسة عصور فعرف الطلبة عنه ذلك وأخذوا أنفسهم بهذا التقسيم فكان يكفي ان يذكروه ليفوزوا . واتفق ان غاب هذا الاستاذ يوماً وخلفه غيره . فأتى على أحد التلاميذ هذه المسألة ماذا نعرف من « كرنيل » وأخـذ التلميذ يقسم نبوغ كرنيل الى عصور خمسة .

فابتدره الاستاذ قائلا : انك مخطىء فلست أنا فلاناً

والتلاميذ يستعينون بالغش والتوصية والتملق وما الى ذلك حتى أصبحت هذه الشهادة أشبه شيء بورق التصيب[1]

ومع ذلك فالناس يحرصون عليها الحرص كله حتى ان رئيس لجنة التحقيق أثبت في تقريره ان الطبقة الوسطى تجل هـذه الشهادة وتعتبرها درجة من درجات الشرف . والحكومة تؤيدها في ذلك فتغلق أبواب المناصب على الذين لا يحصلون على هذه الشهادة . واذن فالامة منقسمة الى قسمين : الحائزون لهذه الشهادة من جهة . والذين يعملون في التجارة والزراعة والصناعة فيعيشون من عملهم ويحيون البلد من هذا العمل أيضاً

---

(١) وينقل المؤلف نصوصاً لاثبات ما تقدم

الفصل الخامس

مسألة التعليم الحديث والتعليم العملي

١

التعليم الحديث

تاريخ هـذا التعليم الذي يسمى التعليم الحديث هو أحسن مثل يسجل ما قلناه من ان الاصلاح ليس بالشيء اليسير اذا لم يسبقه تغيير الآراء والعقائد. فقد حاول أحد وزراء المعارف العاملين عندنا مسيو « ليون بورجوا » ان يصلح التعليم اصلاحاً أساسياً فاستحدث الى جانب التعليم القديم نوعاً آخر من التعليم سمي بالتعليم الحديث الذي فيه التعلّم اللاتيني واليوناني ووضع مكانهما تعليم اللغات الحية والتوسع في درس العلوم. وكان الغرض من هذا التعليم اعداد طائفة من الشبان للحياة العملية المنتجة. ولـكن هذا التعليم الحديث فشل كل الفشل ولم ينتج شيئاً مما كان ينتظر أن ينتجه. وأهم الأسباب التي اضطرته الى الفشل شيئان: الاول ان الجامعة لم تحسن فهمه ولا تدبيره فطبعته بطابعها القديم وسلـكت فيه مناهجها القديمة فاصبح التعليم الحديث تعليماً قديماً ممسوخاً تنقصه اللاتينية واليونانية. والثاني أن أساتذة التعليم القديم حاربوه ومانعوا الممانعة كلها في تأييده وتثبيته. فلم يكونوا مخلصين ولا منصفين. وهناك سبب آخر وهو ان الامر مع انها تشعر بفساد التعليم القديم وحاجته الى الاصلاح لم ترغب في التعليم الحديث ولم تطمئن اليه. وقد أجمع الباحثون على ملاحظة هذا الفشل والاسف له. ذلك لان بلداً كفرنسا ليس محتاجاً الى الذين يعملون في مناصب الحـكومة وحدهم. بل هو محتاج ايضاً الى الذين يعملون في الحياة الاقتصادية في التجارة والزراعة والصناعة. وهو مع هـذا بلد ديمقراطي محتاج الى الذين يؤيدون الديمقراطية ولا يخدمونها. وانما أنصار الديمقراطية حقاً هم الذين يعملون في المصانع والمزارع والمتاجر الا اولئك الذين يستعدون للمناصب والاعمال الحرة ثم لا يجدون منها ما يريدون. فيصيبهم اليأس وتدركهم

الحسرة ويصبحون عالة على الجمهورية أعداء لها . وفي الوقت الذي يظهر فيه فشل التعليم الحديث في فرنسا ظهر نجاح هذا التعليم في المانيا نجاحاً باهراً . فبينما كان في سنة ٨٢ عدد الطلبة المنصرفين الى هذا التعليم في بروسيا ١٢٠٠٠ وعدد المنصرفين الى التعليم القديم ١٢٠٠٠٠ . أصبح اليوم عدد المنصرفين الى التعليم الحديث ٦٥٠٠٠ والمنصرفين الى التعليم القديم ٨٦٠٠٠ . وسبب ذلك ان الالمان لا يصلحون التعليم الا قليلا قليلا ولا يذهبون في ذلك الا مذهب التدرج . فهم قد أنشأوا مدارس متوسطة بين النظامين فيها الحظ القليل او الكثير منهما فيتدرج الطلبة في هذه المدارس وينتصر الحديث قليلا قليلا . وكل هذا التاريخ يثبت ما قلناه غير مرة من أن اصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق باصدار المراسيم وأوامر الوزراء انما ينبغي أن يسبقه تغيير العقائد والآراء . ومن ان تغيير البرامج لا يفيد اذا لم يسبقه تغيير المناهج فليس هناك برنامج سيء اذا حسن الاستاذ وليس هناك برنامج حسن اذا ساء الاستاذ وجهل عن التربية [1]

٢

التعليم العلمي

يكاد خريجو الجامعة يستأثرون بالتعليم العملي واذن فهم يصطنعون فيه مناهجهم النظرية . يعتمدون في هذا التعليم على الكتب يستظهرها الطلبة فينتج هذا التعليم نتيجة لا قيمة لها كنتيجة التعليم القديم . ولولا ان في فرنسا عدداً قليلا من المدارس الفنية أقامتها الجماعات الخاصة كالفرير والافراد لكان من الحق أن نعترف بان ليس لهذا التعليم وجود في فرنسا

على أن الجامعة ليست وحدها مصدر انحطاط هذا التعليم وانما السبب الاساسي لذلك هو كلف الامر بدرس اليونانية واللاتينية واعتقادها ان هذا الدرس ينمي الذكاء ويكفل للتلميذ حياة راقية . ونحن فى عصر انتقال لم يشعر فيه الناس بعد بان هذا الرأي خاطىء من وجهين : فالتعليم القديم يفسد الذكاء ويحول بين التلميذ وبين الحياة الهينة اللينة

---

(١) وينقل المؤلف كلاماً كثيراً في اثبات هذا

آمنت الأسر بقيمة التعليم القديم فكلفت به وأعانتها الجامعة على ذلك . ففي البلاد اللاتينية لا يقاس أمهر الصناع وأقدرهم الى أصغر المحامين والاساتذة ولهذا تجتهد الاسر دائماً في أن تخرج ابناءها من طبقة العاملين الذين تزدريهم لتدخلهم في طبقة العلماء الذين تكبرهم . وهذا مصدر ما نحن فيه من الضعف الاقتصادي . ولقد نشرت احد المجلات الكبرى كتاباً لبعض زعماء الصناعة في فرنسا الشمالية اختصر منه ما يأتي :

« من المؤلم جداً ان نرى قسماً من أقسام فرنسا كانت فيه الصناعة قوية مزدهرة فاصبحت الطبقات الوسطى فيه تنصرف عن هذه الصناعة وتعنى العناية كلها بالعمل في الدواوين . ذلك لسوء الحظ حال الشعوب التي لا ترى في التعليم الا وسيلة توصل الى دواوين الحكومة ومناصبها . كل امرىء يطلب عملا في الحكومة وفي أثناء ذلك يكاد البلجيكيون يستعمروننا فهم يسيطرون على اكبر المصانع القائمة في ناحيتنا . ومن أدل الامثلة على ذلك ما وقع في « موبيج » . فقد ارتقت الصناعة في هذا البلد رقياً عظيماً منذ سنة ١٨٩٢ ولكن بفضل البلجيكيين الذين اقبلوا من « لييج » « وشارلروا » فاقاموا المصانع على الحدود ووجدوا في بلادهم ما هم محتاجون اليه من رأس المال وكان مواطنونا يشهدون ذلك دون أن يتحركوا ويستثمرون أموالهم في المصارف او في شراء الاسهم الاجنبية . ذلك شيء مؤلم موئس . نحن قوم مرضى تعمل فينا علة خفية سنشعر بها بعد فوات الوقت » . ونشرت المجلة نفسها كتاباً يبين ما أصاب مستعمراتنا من نتائج التعليم النظري واهمال التعليم العملي . جاء فيه :

« ان الوطني من ابناء المستعمرات اذا قرأ وكتب وحسب احتقر من يحرث الارض او يعمل في المصنع واعتقد انه من طبقة راقيـة وعد نفسه أوربياً وطالب لنفسه بمنزلة الاوربي . فالتعليم في المستعمرات هو بعينه التعليم في فرنسا الحاح في قيمة الدرس النظري وازدراء للعمل . اخلاء للمصانع والحقول واكثار لعدد الذين يتهالكون على المكاتب والدواوين . ولو ان الذين يعنون بالتعليم في المستعمرات استبدلوا بتاريخ فرنسا منذ فرعون الى نابليون الثالث الترغيب في العمل على اختلاف ألوانه سواء في ذلك الزراعة والصناعة والتجارة لتضاعفت ثروة المستعمرات وتبع ذلك رقي تجارتنا العامة

يقولون ان مستعمراتنا لا تغل شيئاً وينسون أن مصدر هذا انما هو اننا تفسد بالتعليم النظري ذكاء هذه المستعمرات وقوتها على العمل

وهنا نمس نقطة حساسة في حياتنا القومية . فان الذين يسيطرون على الامور في فرنسا يجهلون ان العالم قد تطور وان المكان الاول فيه الآن انما هو للحياة الاقتصادية وان الحاجة ماسة الى العمال الاذكياء لا الى النحويين وعلماء اللغة وغيرهم من الثرثارين . والجامعة تجهل هذا ايضاً ولا تعرف الا ما ورثت من عادات وسنن . يتطور العالم وتنشأ الضروروات وتستتبع نتائجها ونحن عن هذا كله غافلون . وماذا تريد من بلد زراعي صناعي تجاري لان الزراعة والصناعة والتجارة هي التي تحييه وهو مع ذلك يهمل هذه الفنون الاهمال كله وحسبك ان عدد الذين يتلقون التعليم الثانوي الآن ١٨٠٠٠٠ بينما عدد الذين يتلقون التعليم العملي على اختلاف فنونه لا يبلغون ٢٢٠٠٠ بينما تسعة أعشار فرنسا يعيشون من الزراعة والصناعة والتجارة . وشر من هذا ان هذا التعليم العملي على قلة العناية به فاسد الفساد كله لانه متأثر بالجامعة. ففي بلد زراعي كفرنسا يجب ان تعنى مدارس الزراعة بالزراعة العملية لا بالكتب والنظريات . ولكن الكتب والنظريات هي كل شيء في هذه المدارس . ولقد نشرت الجريدة الرسمية تقريراً كتبه المسيو « ملين » يشتمل على معلومات قيمة ويظهر الى أي حد تعتمد مناهجنا العامة في التعليم على قاعدة واحدة . ففي فرنسا (٨٢) مدرسة زراعية عملية غير المجمع الزراعي في باريس . وهذه المدارس تكلفنا في السنة اكثر من ٤ ملايين . وفيها ٦٥١ استاذ و٢٨٥٠ تلميذ أي ٤ تلاميذ لكل استاذ ويتكلف كل تلميذ اكثر من ١٤٠٠ فرنك في السنة . وأكثر التلاميذ في بعض المدارس يدرسون مجاناً ولولا هؤلاء التلاميذ لاضطرت المدارس الى ان تغلق أبوابها

وقد كان ينتظر أن يحسن تعليم هؤلاء التلاميذ القليلين الذين يتكلفون نفقات باهظة بحيث يستطيعون أن يفيدوا الزراع فائدة ما . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن فهؤلاء التلاميذ من جهل الفن الذي يدرسونه بحيث لا يستطيع أحدهم أن يكون خادماً في مزرعة . واذ كان هؤلاء العلماء الزراعيون الذين كنا نعتمد عليهم في اصلاح الزراعة لا يصلحون لشيء فهم يطلبون مناصب الدولة

وأكثرهم يسعى ليكون استاذاً حتى ان ٥٠٠ يتهالكون على ١٥ منصباً .

ولقد عرضت طرق كثيرة للاصلاح منها ما يستدعي تغييراً عظيماً ومنها ما يستدعي تغييراً قليلا ولكن هذا الاصلاح كما قلنا لا سبيل اليه الا اذا تغير الرأي العام . فليس لنا الآ ن الا أن نصلح ما نستطيع قليلا قليلا دون أن ننتظر لهذا الاصلاح نتيجة ذات خطر لان هذه النتيجة لن تتحقق الا اذا تحققت المساواة بين الطبقات وفهم المسيطرون على الامور ان ليس هناك فرق بين المعنيين بالعلم النظري والمتصرفين الى الحياة العملية . وهذه المساواة متحققة من غير شك بل قد أخذت تتحقق لان الثروة أصبحت او أخذت تصبح الوسيلة الوحيدة الى الوصول الى أرقى منزلة اجتماعية . والثروة لا تكتسب بالبحث النظري وانما تكتسب بالجد والعمل . فسيأتي يوم يشعر فيه المسيطرون على الامور في فرنسا بان العمل وحده هو الذي يمكن أبناءهم من أن يصبحوا أغنياء أي من أن يسيطروا على الامور واذا وصلنا الى هذه المنزلة تحققت ثورة عميقة تغير عندنا كل شيء . وليس تحقق هذه الثورة شيئاً مستحيلا فقد تحققت بالفعل في امريكا فاصبح الفرق بين الطبقات لا يكاد يوجد . واذا كان تحقق هذه الثورة لم يكلف أمريكا عناء شديداً فذلك لان هذه البلاد لم تضطر الى مقاومة سنن موروثة وعادات قديمة كما تضطر الشعوب اللاتينية . وأمريكا لم تضطر كما نضطر نحن الى محاربة جامعة قوية رجعية عدوة لكل رقي . لذلك سهل عليها تحقيق هذه الثورة . أما نحن فقد نحققها ولكن بعد عسر شديد . وليس مصدر هذا العسر تمنعنا او اباءنا وانما مصدر تمنع الموتى واباءهم . فالجهاد ليس بين الاحياء وانما هو بينهم وبين الموتى وقد انتصر الموتى الى الا ن ولكنهم لن يظلوا منتصرين

الفصل السادس

مسألة التربية

١

ضعف أصول الجامعة في التربية

مسألة التربية أجل خطراً من مسألة التعليم . الخلق أشد تأثيراً في الحياة من العلم . فشلت الجامعة في التربية كما فشلت في التعليم

ليس من سبيل الى القول بان مناهج الجامعة في التربية حسنة او سيئة لان الجامعة ليس لها في التربية منهج ما . فقد ظلت زمناً طويلا تعتقد ان التربية شيء يتحقق بالكتب والحكم التي يستظهرها الأطفال . ثم أخذت تشعر بخطإها فهي الآن تبحث عما يخلف هذه الكتب والحكم . وهي تكتفي الآن بالصياح بان التربية الحسنة تستتبع النتائج الحسنة . فاذا رجعت الى ما يصدر عن الجامعة سواء في ذلك منشورات وزراء المعارف ورؤساء الجامعات والخطب التي تلقى عند توزيع المكافأت رأيت رجال التعليم مجمعين على ان غاية التعليم الثانوي انما هي انشاء الرجل وتكوينه . ذلك شيء لا يختلفون فيه . فاذا نزلت الى الاصول والقواعد التي اتخذت للوصول الى هذه الغاية لم تجد أصلا ولا قاعدة بل رأيت هذه الغاية قد اهملت كل الاهمال . لم تعمل الجامعة شيئاً وانما اكتفت بهذه الخطب الرنانة . وهذه الجملة التي أنقلها من التحقيق البرلماني تمثل النتيجة التي وصلنا اليها : « ساءت تربية ديمقراطيتنا الفرنسية لم يؤت نظامنا الاجتماعي والسياسي ثمره الذي كنا ننتظره . وكان هذا الفشل حجة يتخذها أعداء هذا النظام لمهاجمته والقدح فيه » (١)

أما الوسائل التي يجب أن تتخذ للوصول الى التربية الحسنة فقد جهلها

---

(١) التحقيق البرلماني . جزء ٢٠٠ صحيفة ٤٣٨ بلوندیل (Blondel) استاذ الحقوق بجامعة ديجون سابقاً

الذين اشتركوا في التحقيق البرلماني جهلا تاماً . نخيل الى كثير منهم أن الرياضة البدنية هي الوسيلة الى هذه التربية وهم يجزعون لقلة العناية بهذه الرياضة . وفي الحق ان العناية بهذه الرياضة قليلة جداً رغم منشورات الوزراء ورغم الجماعات الكثيرة التي تنشأ للعناية بها . ولولا اني عجل لأطلت في بيان قيمة التربية البدنية وانها يجب أن تكون في نفس المنزلة التي توضع فيها التربية العقلية بل يجب أن تقدم على هذه التربية في السنين الاولى

« يعنى الالمانيون بالتربية البدنية عنايتهم باليونانية والرياضة وقد رأيت في المانيا استاذاً واحداً لليونانية والرياضة البدنية معاً . وأعتقد ان اهمال هذه التربية البدنية شديد الخطر على مستقبلنا » (١)

كل هذا حق ولكن التربية البدنية ليست كل شيء وانما هي جزء من التربية ولست أشك في انها قادرة على انشاء شبان لهم قوة هرقل ولكني لا أدري ما أثرها فيما يكون الرجل حقاً من قوة الارادة وحسن الخلق والقدرة على الابتكار الى آخر هذه الصفات التي تكون الشخصيات القوية

ويكفي أن تنظر في هذا البرنامج الذي قدمه مسيو بايو (Bayot) الى المحققين لتعرف قصر النظر الذي تخضع له الجامعة في أمر التربية فهو يقترح :

أولا : أن ينقص الوقت الذي يقضيه التلاميذ في المدن نقصاً شديداً وان ينفق هؤلاء التلاميذ اوقاتاً طوالا في الخلاء يستمتعون بالهواء والضوء

ثانياً : ويجب مقاومة العادة الانجليزية التي تنزل التمرينات البدنية العنيفة منزلة مبالغاً فيها

ثالثاً : يجب استبدال مناهج التعليم القديمة التي لا تكلف التلاميذ عملا والتي ورثناها عن اليسوعيين بمناهج اخرى تحمل التلاميذ على أن يعملوا ويفكروا بانفسهم

رابعاً : يجب ان يشترك أعضاء المدرسة جميعاً في تقوية الآراء والاصول والعواطف الخلقية

فانت ترى ان هذا البرنامج غامض لا يدل على شيء فقد يكون من الخير ان تستبدل مناهج اليسوعيين بمناهج اخرى تبعث التلاميذ على أن يعملوا ويفكروا

(١) التحقيق البرلماني جزء أول . بوترو (Boutroux) استاذ فلسفة في السربون ...

بأنفسهم ولكن ما هذه المناهج . ذلك ما لم يقله مسيو بايو ولا غيره من الذين اشتركوا في التحقيق واذا لم يقولوه فلانهم قد جهلوه . فاما تقوية الآراء والاصول والعواطف الخلقية فكلام لا يدل على شيء (١)

٢
النظام المدرسي اساس للتربية

نفهم بعد هذا التردد أن تعدل الجامعة عن كل نظرية أو رأي في التربية الا اذا تكلم أساتذتها أو خطبوا . وكل ما تعرفه الجامعة من التربية انما هو الاحتفاظ بالنظام في المدارس الثانوية . ولسنا نكره النظام ولا نعيبه فهو قوام الحياة ومن أراد أن يأمر فيطاع وجب عليه أولا أن يطيع اذا أمر . ولكن النظام الدقيق الضيق المتردد الذي يصطنع في مدارسنا الثانوية هو شر النظم لانه لا يفيد ولا يصلح وانما يفسد ويسيء .

ولقد اشترك رئيس لجنة التحقيق في جهل نفسية الاطفال فألقى هذا السؤال : « أليس من الممكن اذا اتجهنا الى عقل الطفل واعتمدنا عليه أن نحمل الطفل على الطاعة وحسن الخضوع للنظام ؟ فأجابه مجيب بان ذلك غير صحيح وان الذي عاشر الاطفال وخالطهم مضطر الى الاقتناع بان ليس للعقل أثر عظيم في حياة الاطفال

ولقد يخطىء الذين يعتقدون ان المربين من الانجليز يعتمدون على العقل في أخذ الاطفال بالنظام . فالانجليز لا يعتمدون على العقل وانما يعتمدون على المنفعة التي هي الاساس المتين للحياة وللتربية

التلميذ الانجليزي حر يؤدي واجبه متى شاء وينتقل في المدرسة كما يجب ولكنه خاضع للمراقبة فهو اذا أساء تأدية الواجب اضطر الى ان يعيد تأديته وهو اذا أساء التصرف في حريته فقد هذه الحرية وهو اذا لم يشتغل أو لم يمكن غيره من أن يشتغل طرد من المدرسة او من المكتب فتضطره منفعته الخاصة الى ان يتفهم النظام ويذعن له

على اني أسرع الى القول بان نظام التربية الانجليزية الذي يلح ناس

---

(١) ثم ينقل المؤلف كلاما كثيراً في هذا المعنى

كثيرون علينا في اصطناعه لا يلائمنا ولا يفيد في بلادنا لشدة الفرق بين الجنسين . وقد أشار الى ذلك مدير انجليزي لاحدى المدارس في فرنسا في حديث له مع احد الصحفيين . فرأى ان الفرق بين الغلام الفرنسي والغلام الانجليزي كالفرق بين اللبن وحامض الكبريت ؟ فبينما نرى الغلام الانجليزي عاقلا هادئاً رزيناً مطيعاً فاهماً للنظام خاضعاً له سامعاً لما يقدم اليه من نصيحة بحيث لا يحتاج الى عنف ولا الى شدة نرى الغلام الفرنسي في عصيان متصل ورغبة لا حد لها في الاستقلال . وماذا تريد يا سيدي العزيز . لكل شعب فضائله ورذائله . فالشباب الفرنسي كريم خير ولكنه مضطرب مهتاج . وهل تأذن لي في أن أضيف ان هذا الشباب فاجر بعض الفجور . ذلك لان حواسه تتنبه بسرعة مدهشة بينما حواس الغلام الانجليزي خامدة هامدة بحكم الرياضة البدنية العنيفة على اختلافها . واذن فالمناهج التي تلائم احد الجنسين خطرة جداً بالقياس الى الجنس الآخر

كل هذا حق . ومع ذلك فقد نستطيع أن نتبين ما ينبغي ان نتخذ من النظام لتصلح الحياة في مدارسنا الثانوية

اسوأ شيء في مدارسنا هو هذه المراقبة المتصلة التي تضايق الطفل وتثقل عليه . فاترك له شيئاً من الحرية واجتهد في أن يعلم ان هذه الحرية ستسلب اذا أساء استعمالها . لا تراقبه ولا تحاصره حتى اذا خالف النظام فانبئه بان هناك رقيباً . دعه يخرج وحده اذا بلغ سناً معينة . فاذا أساء استعمال هذه الحرية فاستردها منه . هذا شيء نافع وقد أخذ عدد قليل من الاساتذة يشعر بنفعه.

اذا أردت أن يحسن الشاب الاعتماد على نفسه في الحياة وجب عليك أن تترك له شيئاً من الحرية ولقد كانت العادة في فرنسا أن تغلق أبواب العربات على المسافرين مخافة أن يخرجوا منها أثناء سير القطار وأن يحبس الناس في غرف الانتظار في المحطات مخافة أن يسقطوا تحت عجلات المدار . أما الآن فالناس لا يحبسون في غرف الانتظار والعربات لا تغلق على المسافرين وليس ذلك سبباً في ازدياد أخطار السكك الحديدية

ولقد يجهل رجال الجامعة هذا كله جهلا تاماً وان له أثرا سيئاً في التربية . فقد

حكى بعض الاساتذة ان خمسة عشر تلميذاً في مدرسة ثانوية في باريس كانوا قد أزمعوا بعد استئذان آبائهم أن يذهبوا الى غابة بولونيا للاشتراك في لعب الكرة يوم خميس . فلما كان ميعاد خروجهم تأخر المراقب وحار مدير المدرسة في أمره فعرض رئيس التلاميذ وكان شاباً عاقلا رزيناً أن يقوم مقام المراقب وأعطى كلمة شرف بان رفاقه لن ينالهم شيء . فكان جواب المدير انه لا يستطيع أن يعتمد على كلمة شرف تصدر عن تلميذ . أليس مثل هذه الحادثة خليقاً بافساد حياة الشبان ؟ . ولقد ينشأ عن هذه المراقبة الشديدة السيئة اجتهاد التلاميذ في الافلات منها بالخداع والغش كما ينشأ عنها ثورة التلاميذ ورغبتهم في العصيان . وآثار هذا كله ظاهرة في كل مكان وفي البيت بنوع خاص حيث ضعفت سلطة الآباء على أبنائهم ضعفاً شديداً ظاهراً بينما هي في انجلترا قوة لا تقبل المناقشة .

هذه المراقبة الشديدة السيئة التي تنتج الخداع والعصيان هي مصدر الشر في حياة الامم اللاتينية . هي التي تنتج الاثرة الفردية هذه الأثرة الخطرة على حياة الشعوب بينما الحرية مصدر الصراحة والطاعة في انجلترا وبينما هذه الحرية تنتج عند الانجليز الاثرة الاجتماعية التي قد تبغض الانجليز الى غيرهم ولكنها قوام حياتهم ومصدر سيادتهم العامة

الكتاب الخامس

روح التعليم والتربية

الفصل الاول

الدعائم النفسية للتعليم

١

اساس التعليم النفسي عند رجال الجامعة

فرغنا من الجزء النقدي من هذا الكتاب فبينا فيما سبق ان ليس لاصول التربية والتعليم المصطنعة في الجامعة قيمة ما او ان ليس للجامعة اصول في التربية والتعليم . واذ كنا قد اثبتنا فيما سبق ان ليس الى الاصلاح الا ن من سبيل فلسنا نكاد نقترح اصلاحاً فيما بقي من هذا الكتاب . ولقد كنا نستطيع ان ننتهي ببحثنا عند هذا الحد ولكننا رأينا ان نعرض الاصول التي ينبغي ان تقوم عليها التربية والتعليم والتي ينبغي تطبيق هذه الاصول في جميع فروع التعليم . ونحن نعلم ان مثل هذا البحث ليس له الا ن فائدة عملية ولكنه قد يفيد يوم تدعو الحياة الاقتصادية الجديدة الى تغيير نفسية الاساتذة والاسر والتلاميذ فيشعرون جميعاً بوجوب العدول عن هذه المناهج القديمة

ولنذكر قبل البدء في عرض هذه الاصول ان الجامعة لا تعتمد في التعليم الا على الذاكرة وقد لاحظنا فيما تقدم ان اكبر علمائنا واشهرهم لا يتساءلون عن الاصل الصحيح الذي ينبغي ان يعتمد عليه التعليم وما هم يتساءلون عن هذا وهم يثقون كغيرهم من رجال الجامعة في جميع الامم اللاتينية بان الذاكرة وحدها هي الوسيلة الصحيحة للتعليم . فهم يغيرون الكتب والبرامج دون ان يغيروا المنهج ومن هنا لا يفيد ما يقترحون من اصلاح ومن هنا هبط التعليم عندنا الى حيث لا يستطيع ان يهبط بعد ذلك ومن

هنا اضاع التلاميذ من اعمارهم ثمانية أعوام في المدرسة التي هي أشبه بالسجن حتى اذا خرجوا من هذه المدرسة او من هـذا السجن لم تمض عليهم أشهر حتى ينسوا كل شيء وحتى يضطر أصحاب الذكاء النادر الى ان يستأنفوا تربيتهم فيما بقي لهم من ايام الحياة

٢

النظرية النفسية للتربية والتعليم

تحويل الشعوري الى لاشعوري

اذا لم تكن الذاكرة اساس التربية والتعليم فعلى اي ملـكة من ملـكات النفس تعتمد التربية ويعتمد التعليم ؟ ليس من شك في ان أسس التربية والتعليم مستقلة استقلالا تاماً عن البرامج ولـكنها مستعدة لان تطبق على هذه البرامج. ولهذا نرى البرامج متحدة عند كثير من الامم دون ان تتحد نتائجها . بل قد يظهر اتحاد البرامج ويدهشنا اختلاف النتائج اختلافاً عظيما . ذلك لان المربين من الاجانب قد استطاعوا أن يستكشفوا الاسس الصحيحة التي يجب ان يعتمد عليها المربي والمعلم فانتهوا الى نتائج لم نصل اليها نحن وان كانت برامج التعليم والتربية واحدة هنا وهناك

ولقد يمكن اختصار القواعد الاساسية النفسية للتربية والتعليم في صيغة واحدة رددتها كثيراً في كتبي وهي ان التربية هي الفن الذي يعين على تحويل الشعوري الى لاشعوري

فاذا استحال الشعوري الى لاشعوري بعث في النفس حركة لا ارادية متصلة . وانما السبيل الى هذه الغاية — وهي تحويل الشعوري الى لاشعوري — هو قانون تنادي الخواطر . فيجب على المربي ان يحدث في نفس الطفل خواطر ينادي بعضها بعضاً يشعر بها الطفل في اول الامر ثم تصبح جزءا لاشعورياً من نفسه . ومهما يكن الشيء الذي نريد ان نعلمه للطفل سواء أكان لغة او فن اصطناع الدراجة او ركوب الخيل او التوقيع على البيانو فالحركة الآلية واحدة وهي تحويل الشعوري الى لاشعوري بواسطة تنادي الخواطر

الذي يخلق الحركة اللاارادية [1]

بل نستطيع ان نقول ان تكوين الاخلاق بنوع خاص قائم على هذه القاعدة فليس للاخلاق أثر في الحياة الا اذا استحالت من الشعوري الى اللاشعوري . هنالك ترشدنا الاخلاق في الحياة وليس للعقل اثر في ذلك وليس للكتب اثر فيه بنوع خاص . ولقد اظهر علم النفس الحديث ان أثر اللاشعوري في حياتنا اليومية اشد وابعد من أثر الشعوري

وانما ينمى هذا اللاشعوري بايجاد الحركة اللاادارية وهذه الحركة اذا تكررت أصبحت عادة فاذا تكررت في أجيال مختلفة أصبحت خلقاً مكوناً للجنس . وعمل المربي هو التأثير في هذه الحركة اللاارادية بحيث يقويها ان كانت نافعة ويضعفها أو يزيلها ان كانت سيئة . فنحن اذن نكاد نكون المؤثر اللاشعوري في حياتنا ولكننا متى كوناه عجزنا عن التأثير فيه فاصبح مسيطراً على حياتنا . وانما توجد هذه الحركة اللاارادة بواسطة خواطر متكلفة يدعو بعضها بعضاً . ذلك شأن الطفل حين يتعلم المشي وشأن الشاب اذا تعلم التوقيع على البيانو أو أي فن يدوي آخر . وليس من شك في ان الحركة اللاارادية التي تخلقها التربية ليست من القوة بمكان الحركة اللاارادية التي بعد بها العهد . ومن هنا كان أثر التربية ضعيفاً في تغيير الاخلاق والعادات التي توارثتها الجماعات والاجناس . فاذا لم تتكرر هذه الحركات اللاارادية التي خلقتها التربية ضعفت

---

(١) قانون تنادي الخواطر أشهر من ان نفصله وانما نلفت القارىء الى ان لهذا القانون صورتين ترجع اليهما كل الصور الاخرى التي تتنادى فيها الخواطر : الاولى تنادي الخواطر بحكم المجاورة . الثانية تنادي الخواطر بحكم التشابه . وصيغة الصورة الاولى هي انه اذا تأثرت النفس بشيئين مختلفين في وقت واحد او في وقتين متتابعين مباشرة فذكر احدهما يذكر بالآخر . وصيغة الصورة الثانية هي ان الخاطر الذي يخطر لك الان يذكرك بما خطر لك في الماضي اذا كان يشبهه . وعلى الصورة الاولى تقوم دائماً تربية الكائنات الحية فتعليم الفرس مثلا قائم على هذه الصورة التي تستخدم فتنتج نتائج يظهر لنا انها متناقضة كوقوف الفرس فجأة اذا ضربته بالسوط أثناء العدو ذلك لان معلمه قد استخدم صورة تنادي الخواطر بحكم المجاورة أياماً متوالية فجعل يضربه بالسوط أثناء العدو ويقفه بشد اللجام . وأنتج ذلك عند الفرس ان وقع السوط يستتبع الوقوف فاصبح اذا أحس السوط وقف دون احتياج الى جذب اللجام

ثم امحت لانها اثر من آثار العادة فاذا ذهبت العادة ذهبت معها . ومن هنا نجد الفارس والموسيقي كليهما معنى بفنه يمرن نفسه فيه من وقت الى آخر حتى لا ينساه ولا يجهله . ومن الظاهر ان بعض الحركات اللاارادية قد يمانع بعضها الآخر . وان ارادة قوية قد تستطيع ضبط هذه الحركات . فاذا ادنى انسان يده من عين انسان آخر اغمضت هذه العين بحكم حركة لا ارادية ولكن شيئاً من التمرين الارادي يمكن الانسان من أن يبقى عينه مفتوحة دون ان يغمضها

والغاية العظمى التي ترمي اليها التربية انما هي تنظيم الحركات اللاإرادية الموروثة

كثير من الناس لا يزالون كما كانت آباؤهم في العصور الاولى خاضعين لهذه الحركات اللاارادية يستجيبون لها دون نظام ولا تفكير فهم كالسوداني الذي يبيع غطاءه صباحاً بكأس من الخمر ليشتريه اذا اقبل الليل واقبل معه البرد . فلا بد اذن من تنظيم هذه الحركات تنظيما داخلياً نفسياً وقد وصل الى هـذا التنظيم ناس قليلون ولكن الكثرة المطلقة من النوع الانساني لا تزال بعيدة عنه . فاما هؤلاء الذين يستطيعون تنظيم حركاتهم اللاارادية فهم يكتفون بما لهم من بعد النظر وحسن التدبر عن القوانين التي تنظم هـذه الحركات تنظيما خارجياً . هم يضبطون انفسهم بانفسهم بينما غيرهم لا يضبطه الا القانون . وظاهر ان الجماعات التي تقوم على خوف الشرطة لا قيمة لها

ومن اليسير ان تقاس سطوة الشعوب بعدد من فيه من اولئك القادرين على ضبط نفوسهم بواسطة هـذا النظام الداخلي ولقد يصيب الانجليز حين يقدمون على الفضائل كلها فضيلة ضبط النفس . فهم مدينون لهذه الفضيلة بقوتهم وسلطانهم . ولقد كان خليقاً بالحكيم القديم ان يكتب على داره « اضبط نفسك بنفسك » لا « اعرف نفسك بنفسك » . فان معرفة النفس شاقة جداً ولا تنتج الا التواضع بينما ضبط النفس يسير وهو ينتج القوة في الحياة . واذن فسبيل المربي ان يؤثر في هذه القوة اللاشعورية عند الطفل . لا ان يتجه الى عقله فليس لذلك فائدة . بل اقل نظام يؤخذ به الطفل انفع واجدى من ارقى المذاهب الخلقية على ان يكون هذا النظام قوياً متيناً لا متردداً ولا ضعيفاً . يجب اذن ان يوجد المربي في نفس الطفل حركات لا ارادية جديدة الى جانب

الحركات اللاارادية الموروثة بحيث تقوى هذه الحركات الجديدة تلك الحركات الموروثة ان كانت نافعة او تغيرها ان كانت سيئة . النظام الخارجي يوجد النظام الداخلي اذا لم تكن هناك مقاومة وراثية . فبحكم هذا النظام الخارجي يتعلم الصانع صناعته والجندي والبحار فنهما . وظاهر ان المناهج التي تتخذ لايجاد هذه الحركات اللاارادية تختلف باختلاف الموضوعات ولكن الاصل واحد وهو تكرار الشيء الذي يؤخذ الطفل بتنفيذه حتى يحسن هذا التنفيذ . هذه القواعد البينة لا يشك فيها رجال الجامعة بالقياس الى الفنون المختلفة كالموسيقى والتصوير . ولكنهم لم يهتدوا بعد الى هـذه القواعد بعينها صالحة لكل ما يكتسبه الانسان سواء أكان هذا علماً ام فناً ام صناعة . فاذا وصلنا الى توجيه الرأي العام نحو الاقتناع بهذه الآراء فقد اظن ان عشرين سنة تكفي لاقناع الاساتذة وغيرهم بفساد نظامنا التعليمي الذي لا يقوم الا على الذاكرة . ويومئذ ينهار هذا النظام كما تنهار النظم القديمة التي لا تجد من يدافع عنها

٣

اثر قانون تنادي الخواطر في تكوين بعض الغرائز وخصال الشعوب

الاصول التي قدمت الاشارة اليها عامة جداً تتناول الانسان كما تتناول الحيوان وتتناول الافراد كما تتناول الشعوب فالاصل في كل كسب عقلي انما هو استخدام قانون تنادي الخواطر في تحويل الشعوري الى لاشعوري وليست هناك وسيلة اخرى تؤدي الى هذه الغاية

ولاجل ان نثبت ما زعمنا من عموم هذه الاصول نحاول الآن ان نطبقها على اشياء شاقة كتكوين بعض الغرائز واخلاق الشعوب . كثير من الغرائز انما يتكون بواسطة التأثير الآلي الذي يحدثه تنادي الخواطر . فالماهر في ركوب الدراجة او في فن من فنون الموسيقى او في الاحتفاظ بتوازن الجسم حين يمشي على الحبل والطفل حين يتعلم الاخلاق كل اولئك يؤلف من الخواطر التي تتنادى في نفسه طائفة مختلفة يحتفظ منها بانفعها واهداها الى الغاية التي يسعى اليها هو او معلمه . وبفضل هذه الطائفة تتكون في نفسه ملكة تمكنه من اتقان الصناعة التي يحاول اتقانها ولكن هـذه الملكة لا تكون غريزة لانها

ليست وراثية بعد . فاذا اصبحت وراثية واستغنت عن التربية وتهذيب المهذب في وجودها فهي الغريزة

يكفي ان نلاحظ الحيوانات المستأنسة التي تحيط بنا لنرى كيف ان تنادي الخواطر يخلق في أنفسها حركات لاارادية وكيف تثبت هذه الحركات حتى تصبح لاشعورية ثم تنتقل من جيل الى جيل فتصبح وراثية اي تصبح غريزة . ولم يعن العلماء بعد عناية كافية بهذا البحث ولكنهم سيوفونه حقه حين يرون ان أثره عظيم في تربية الاطفال . والامثال التي تبين ايجاد الغرائز وخلقها بعد ان لم تكن ، ليست كثيرة شائعة، ولكنها موجودة وستكثر وتشيع . فللكلاب غرائز ليس من شك في انها قد استدثت بالرياضة والتعليم ثم توارثتها الاجيال فاصبحت لازمة لهذا الحيوان . وهناك عادات لم تصل بعد الى مرتبة الغريزة ولكنها آخذة في الوصول الى هذه المرتبة . فهناك مثلا عادة جديدة يصطنعها الكلب في اتقاء المكر الذى يتخذه بعض الصيد اذا جدّ في الهرب والح عليه الكلب فاتعبه فهو يقيم مكانه صيداً آخر يمضي في الهرب ليتبعه الكلب ويستريح هو . فقد قال الاستاذ « كوتو » ان الكلاب لم تؤخذ بهذا النوع من المكر الا منذ ستين سنة ولم تمهر فيه بعد ولم يصبح وراثياً فيها فلابد من اصطناع التربية في كل جيل ولكن أثر التربية يتناقص شيئاً فشيئاً ولا بد من الاستغناء عنها استغناءً تاماً بعد حين بحيث تصبح هذه الخصلة غريزة ثابتة

كل هذه الملاحظات تعيننا على ان نفهم أثر التربية في تكوين اخلاق الشعوب وصفاتها حسنة كانت ام سيئة . فان هذه الاخلاق والصفات انما هي نتائج البيئة والظروف التي تحيط بهذه الشعوب في عصر من العصور وقد تتغير البيئة وقد تستحيل الظروف وتبقى هذه الاخلاق والصفات لانها نشأت عن الضرورة ثم استحالت الى غرائز تلزم الامة في جميع اطوارها . فمن المعقول ان شعباً يقيم في جزيرة فقيرة شاقة الاقليم مضطر الى ان يكسب حياته وثروته بالعمل في البحر والى ان يكون من القوة والشدة بحيث يستطيع ان يقاوم آلام الجو وما يعترضه في سبيل الحياة من المصاعب . فهو يروض نفسه بحكم الضرورة على هذه الخصال فيكسبها ثم يتوارثها ثم تصبح خلالا تميزه من غيره . ومن الواضح ان من الممكن جداً ان توضع التربية مكان الظروف والضرورات القاهرة بحيث

تكسب الاجيال خصالا تتوارثها فتصبح اخلاقا وغرائز نفسية . ولقد كان « ليبنز » (leibniz) يرى هـذا الاصل ويقول ان قرناً يكفي لتغيير امة من الامم وربما كان القرن قليلا ولـكن ليس من شك في ان التربية تستطيع ان تقوم مقام الظروف والضرورات في تكوين اخلاق الامم والشعوب

٤

التربية في العصر الحاضر

يظهر مما تقدم انه لا بد من ان توجد قواعد للتربية تستمد من الاصول التي شرحناها . ولـكن هذه القواعد لا يمكن استنباطها الا اذا درس علم النفس بالقياس الى الاطفال والحيوان درساً مفصلا وعرفنا بكل دقة كيف تخلق عند الطفل وعند الحيوان العادة والغريزة . ولـكن هذا الموضوع لم يدرس بعد كما ينبغي ونستطيع ان نقول انه لم يكد يمس . فيجب ان نكتفي الآن بالتجارب الشخصية وان نسترشد بها في التربية حتى اذا درست نفسية الطفل والحيوان درساً كافياً وأمكن وضع كتاب في التربية يكون له خطر عظيم . هنالك تستطيع التربية ان تقوم على أساس صحيح . ويجب ان نعترف ـ ما دام هذا الـكتاب لم يؤلف بصعوبة ما يطلب الى المربي فان المربي الجيد نادر ندرة الرائض الجيد . ورجال الجامعة انفسهم يشعرون بضعف مناهجهم في التربية وعسر الوصول الى مناهج صالحة . وقد كتب مسيو « كومبري » (Compayré) مصيباً ان ليس من سبيل الى ايجاد تربية صالحة الا اذا درس علم النفس درساً صحيحاً

ولقد كتب المسيو « لبون بورجوا » كتاباً نشره سـنة ١٨٩٠ حين كان وزيراً للمعارف ونصح فيه للاستاذ ان يعتمد على نفسية الطفل في التربية وعلى نفسية الشاب في التعليم ولاحظ ان الاولى لم تدرس الا درساً متقطعاً وان الثانية لم تدرس قط وكانت نصائحه نافعة مفيدة ولـكن احداً لم يلتفت اليها ومن الغريب ان هـذا العلم على نفعه وجلال خطره لم يبعث الشوق الى درسه في نفس من نفوس الاساتذة مع ان الاساتذة وحدهم هم القادرون على درس نفسية الشبان الذين يحيطون بهم . وقد استطاع العلماء في معاملهم بعد ان شرحوا

طائفة لا تحصى من الضفادع والارانب ان يصلوا الى نتائج قيمة كسرعة التأثر العصبي وكالصلة بين التأثير الخارجي وبين الحس وكأشياء كثيرة تتعلق بالمجموع العصبي . ولكنهم لم يصلوا بعد الى اشياء واضحة معينة في علم النفس العملي

واذا لم نوفق الى هذا الكتاب الذي اشرنا اليه في التربية فيمكن ان نستغني عنه مؤقتاً بتحقيق لا يتناول البرامج والقواعد العامة كما الفنا وانما يتناول مناهج التعلم والتربية في البلاد الاجنبية المختلفة . هذا التحقيق نافع جداً لانه يدلنا على النتائج المختلفة التي انتهت اليها مناهج التربية والتعلم على اختلافها واختلاف بيئاتها . واليك مختصراً لبعض الملاحظات التي كتبت عن منهج التربية والتعلم لمدرسة كبرى المانية في مدينة « كنيجسفلد » (Kcn gsfeld) وقد وجدت هذه الملاحظات في جريدة « الطان » التي صدرت يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠١ بقلم مسيو « ماسون فورستي » :

قاعدتهم في التربية انقاص الساعات التي يعمل فيها الطالب بنفسه الى اقصى ما يمكن . فهي لا تكاد تتجاوز الساعتين . وهناك ست ساعات أخرى خصصت للدرس يتعلم فيها الطالب باذنيه كما يتعلم بعينيه . ولا يكاد يتجاوز الدرس ثلاثة ارباع الساعة والطلبة يستريحون كثيراً ويأكلون كثيراً أيضاً . ويتبع الطالب في كل قسم الدروس التي تلائم قوته بحيث ان طالب القسم اذا كان ضعيفاً مثلا في مادة من مواد هذا القسم فهو مضطر الى ان يدرس هذه المادة في القسم الذي دونه . ولا يتجاوز عدد التلاميذ لاستاذ واحد اثنى عشر او ثلاثة عشر. واذا عجز الطفل عن ان يفهم شيئاً في الدرس فله بعد الدرس ان يخلو الى الاستاذ ليفهم ما شق عليه . والعقاب المألوف انما هو الصمت فيكلف الطالب ان يسكت اثناء اوقات الراحة في اليوم كله . ويقولون ان هذه العقوبة مؤلمة جداً . ومع ذلك فهذه العقوبة مألوفة لانهم يرون فيها نفعاً كثيراً . فان الطالب الذي يخضع لها كثيراً يتعود الصمت فلا ينطق الا قليلا . ومن هنا فأكثر التلاميذ خضوعاً لهذه العقوبة يأمنون شر اللغط والثرثرة والفخر الكاذب . يضبطون انفسهم فيزنون الفاظهم ويحسنون الاسماع ولا يؤذون الناس بألسنة حداد . وبهذا يأمنون عداوة الناس في الحياة . ولقد رافقت فرنسياً من طلاب هذه المدرسة في رياضة فألححت عليه في المسألة وسألته كيف يستطيع

ان يحتمل هذا النظام الشديد أليس يتمنى لو عاد الى أسرته ؟ فأجابني هذا الطالب وهو من مدينة « بوردو » وكازكيا : اني قليل الشعور بالألم في هذه المدرسة حتى اني آثرت المدرسة على أسرتي لاشترك في السياحة السنوية التي يسيحها طلاب المدرسة في الخارج . وحذا حذوي عشرون من رفاقي . ونحن عائدون الآن من « التيرول » (Tayrol)

ليس لدينا الآن مناهج صالحة مفصلة يمكن اصطناعها في فروع التربية والتعليم على اختلافها ولكن لدينا الاصول العامة التي تستنبط منها هذه المناهج . فنحن نعلم ان غاية التربية تحويل الشعوري الى لا شعوري وليس علينا الا ان نطبق هذه النظرية كلما عرضنا لفرع من فروع التربية والتعليم وسنعرض لذلك غير مرة في الفصول المقبلة ولا سيما التي تمس التربية منها

ولكن الشعوب اللاتينية ستظل زمناً طويلاً دون ان تقدر هذه الاصول حق قدرها لان القاعدة عند هذه الشعوب ان يقدر كل شيء بالامتحان والشهادات والذاكرة وحدها هي التي يمكن ان تقدر بالامتحانات والشهادات . فاما الاخلاق وقوة الارادة والعمل الشخصي فليس للامتحان عليها سبيل . ولقد عرف الانجليز اخيراً قيمة الامتحانات والمسابقات حين اشتدت الحملة الصحفية في الهند على احتكار الاوربيين لمناصب الحكم . فاضطر الانجليز الى ان يجعلوا هذه المناصب موضوع المسابقة وأبيح للوطنيين ان يسابقوا فسبقوا لان لهم ذاكرة ليست للاوربيين ولكنهم لم يكادوا يعملون حتى ظهر نقصهم وفضل الاوربيين وحتى كاد حكمهم ينتهي بالبلاد الى الفوضى واضطر الانجليز الى ان يسلكوا سبلاً مختلفة من الحيلة لاتقاء هذا الشر . وعرف الالمانيون ذلك أيضاً فلم يحفلوا بالامتحانات لتكوين اكبر منصب علمي وهو منصب الاستاذ في الجامعة فاستاذ الجامعة في المانيا لا يصل الى منصبه بالامتحان وانما يصل اليه بفضل عمله الشخصي . ومن هنا كانت الجماعة الاساتذة في المانيا أرقى جماعة للتعليم في العالم كله . أما عندنا فالامتحان كل شيء ولقد يمضي احدنا اربعين سنة من عمره يستظهر ويحفظ ليؤدي الامتحان ثم ينسى ما استظهر فاذا وصل الى منصب الاستاذ لم يكن شيئاً ولم يفد قليلا ولا كثيراً لانه قد وصل الى هذا المنصب بعد ان أفنى قواه العقلية فيما لا خير فيه

٥ التعليم التجريبي

تنتهي النظرية النفسية التي قدمناها الى نتيجة واضحة وهي ان ليس في الاعتماد على الذاكرة خير . واذا لم يمكن الاعتماد على الذاكرة في التعلم فلا بد من الاعتماد على التجربة . ذلك شيء معروف يردده العلماء منذ زمن بعيد فقد قال مونتيني (Montaigne) « ليس الاستظهار علماً » . وقال (كانط) (Kant) « اذا لم يستعمل الطفل قاعدة من قواعد النحو فسواء علينا أحفظها أم لم يحفظها وانما يعلم القاعدة من استطاع ان ينتفع بها وان عجز عن استظهارها » . وقال ايضاً « ان أحسن طريقة للفهم انما هو العمل »

بينما تعليم الذاكرة يعتمد على الكلام أو على الكتاب يعتمد تعلم التجربة على ان توجد الصلة بين الطفل وبين الحقائق ثم تشرح له النظريات فيما بعد اما الشعوب اللاتينية فتصطنع الطريقة الاولى . وأما الانجليز السكسونيون ولا سيما الامريكيون فيصطنعون الطريقة الثانية

فالشاب اللاتيني يتعلم لغة من اللغات بدرس كتاب النحو والاستعانة بالمعجم وهو يتعلم الطبيعة باستظهار كتاب من كتبها . وهو عاجز عن ان يتكلم هذه اللغة عاجز عن ان يصطنع أداة من أدوات المعنى . والشاب الامريكي يتعلم لغة من اللغات دون ان ينظر في كتاب من كتب النحو أو في معجم وانما يقرأ ويتكلم . وهو يتعلم الطبيعة في المعمل لا في الكتاب . وبهذه الطريقة استطاع الانجليز ان يكوّنوا لانفسهم طبقة راقية جداً من العلماء العاملين

لست منفعياً بوجه من الوجوه . أو على أقل تقدير لست مع الذين يرون ان التعليم يجب ان ينحصر فيما يفيد فائدة حاضرة . وانما أرى ان التعلم يجب ان ينتج تقوية العمل والخلق والارادة وان يربي ملكة الحكم الصحيح ويوجد الشخصية الظاهرة في الحياة . ولست اكره تعليم اللاتينية واليونانية والهندية لنفسه بل لو أثبت لي انسان ان هذا التعليم يؤدي الى هذه النتائج لكنت اول من يؤيده ولكن التجربة أظهرت ان التعليم المعتمد على الذاكرة لا يفيد وان التعليم التجريبي وحده هو الذي يكوّن الانسان ويمكنه من الفوز في الحياة من الوجهة العملية ومن الوجهة النظرية أيضاً

ولو ان انساناً أراد ان يظهر الفرق الاساسي بين هذين النوعين من

التعليم لاستطاع ان يقول ان أحدهما يعتمد على الكتب والثاني لا يعتمد الا على التجربة . ولقد يمكن الحكم على هذين المنهاجين بنتائجهما . فالشاب الانجليزي او الامريكي لا يكاد يخرج من المدرسة حتى يجد طريقه الي العمل بينما الشاب الفرنسي بعد أن يبلغ الشهادة الثانوية أو الليسانس أو شهادة الهندسة عاجز عن كل شيء فاما أن ترزقه الحكومة واما أن يضيع . ولقد يلجأ الى الصناعة ولكن مكانه فيها ضئيل حتى يجد من الوقت ما يستأنف فيه تعليمه ويتعلم بنفسه ما عجز الاساتذة عن تعليمه اياه . فاذا سلك طريق التأليف فلن تكون كتبه ورسائله الا طبعات معادة من كتب ورسائل معروفة منتشرة

ولقد نعلم أن واحداً في المئة من أساتذة الجامعات الان يستطيع أن يؤمن بما نقول . فاما الآخرون فيرونه سخفاً وحمقاً ولن نستطيع أن نقنع رجال الجامعة بنفع التعلم التجريبي لانهم آمنوا منذ زمن طويل بان درس الكتب وحده هو الذي ينفع وهو الذي يفيد . وخير تلميذ عندهما تكن المدرسة التي يتعلم فيها أو الفرع الذي يتخصص له انما هو من يحسن الاستظهار والاعادة ولقد يضحك منك رجال الجامعة اذا ذكرت لهم ان التعليم العملي مقو للعقل وملكة النظر لانهم مؤمنون بان المنطق وحده هو الذي ينمي هاتين القوتين . وكل ما تسمح به الجامعة الى جانب تعليمها اللفظي انما هي تجارب قليلة في المعمل لا تغني ولا تفيد . وليس ينبغي ان نفترض ان العلوم التي نسمى تجريبية هي التي يجب أن تدرس وحدها درساً تجريبياً وانما هذا الدرس التجريبي يستطيع ويجب ان يتناول كل شيء . وسنرى ان الجغرافيا والتاريخ واللغة يمكن ويجب ان تدرس درساً تجريبياً . فلا ينبغي مثلا ان يبدأ الطفل في درس الجغرافيا الا بعد أن يكون قد استطاع أن يفهم الجهة التي يتردد فيها وأن يرسم صورها على ورقة ما لانه لا يستطيع أن يفهم الصورة الهندسية للارض الا بعد أن يكون قد أتقن تصور الارض التي تقع تحت عينه

وقل مثل ذلك في التاريخ . فان الطفل الذي يري الصور الفوتوغرافية المختلفة لما بقي من آثار الحضارات المتباينة أقدر على فهم التاريخ من ذلك الذي لا يدرسه الا في الكتب . ولقد أمعن الانجليز والالمان في فهم ذلك وتنفيذه. يجب أن تكون التجربة أساس كل شيء في التعلم فهي وحدها التي تكون الانسان

الفصل الثاني

الاسس النفسية للتربية

١

غاية التربية

يتحدثون اليوم عن التربية الخلقية . عند تكوين الاخلاق وايجاد الرجال . ويتحدثون في هذا كثيراً . فيحسنون الحديث ولكن اين الاساتذة الذين يستطيعون ان يحققوا هذه التربية فيكوّنوا الاخلاق ويوجدوا الرجال . بل اين الاساتذة الذين يستطيعون ان يدلوا على المناهج التي توصل الى هذه التربية . لقد نقرأ مجلدات التحقيق وهي ستة ضخام فلا نجد فيها من ذلك الا اشياء عامة غير محددة ولا واضحة . وهذا يدل على اننا نقول كثيراً في غير طائل . ومع ذلك فقليل من الموضوعات له خطر هذا الموضوع . لان التربية الصحيحة مقياس ما للامم من قيمة . وهي بذلك اجل من التعليم خطراً

فاذا سألت عن قيمة الفرد ما هي وما مقياسها اجابك اللاتيني : هي ما تعلم الفرد ومقياسها ما نال الفرد من الشهادات . ولكن الانجليزي والامريكي لا يحفلان بهذه الشهادات ولا بالعلم الا قليلا . وقيمة الفرد عندهما خلقه وشخصيته وقوته الارادية وقدرته على الابتكار . فهو انسان ان حصل على هذه الخلال وهو ان حصل عليها قادر على ان يعلم في كل وقت ما هو في حاجة الى ان يعلمه . هو واثق بانه سيكون انسانا على كل حال ان اخطأه الحظ فلم يكن شيئاً مذكوراً . فالرجل عند الانجليز والامريكيين قوة عاملة مبتكرة معتمدة على نفسها . وهو عند اللاتينيين شخص بيده شهادات تثبت حظه من الذاكرة . هو عند الانجليز والامريكيين رشيد وعند اللاتينيين قاصر ابدا يظل طول حياته تحت سيطرة الدولة التي تمنحه الشهادات وتعين له الطريق التي يجب ان يسلكها وترسم له الخطة التي يجب ان يتبعها في سلوك هذا الطريق

أكرر ان الغاية الصحيحة للتربية انما هي تقوية بعض الاخلاق والصفات كالشخصية والابتكار والارادة والشعور بالتضامن ومضار العزم وما يشبه ذلك . ولا سبيل الى تقوية هذه الصفات الا بتمرينها ولا سيما أقلها ظهوراً عند الفرد . واذا كان الامر كذلك فعمل التربية انما هو تقوية الفضائل ومحاربة الرذائل . ومن هنا لم تكن التربية واحدة بالقياس الى الشعوب كلها . فلكل شعب مزاياه التي يجب تقويتها ونقائصه التي يجب اضعافها . ولن تكون التربية واحدة بالقياس الى الايطالي والروسي والفرنسي والزنجي . اما نظام الجامعة عندنا فهو لا يقاوم نقائصنا وانما ينميها . . .

قليل جداً حظ اللاتينيين من الشعور بالتضامن وتبادل الحب . ولكننا نتعجل فنقضي على هذا الحظ القليل بهذا النظام السيء الممقوت نظام المسابقة والمكافأة الذي نبذه الانجليز والالمان منذ زمن طويل . قليل جداً حظ اللاتينيين من الابتكار والقوة الشخصية وكيف يكون لهم منهما حظ وهم خاضعون أبداً للمراقبة . فكل أعمالهم منظمة محدودة معينة ليس لهم فيها اختيار ولا ابتكار بل ليس لهم من وقتهم ما يسمح لهم بان يشعروا ان لهم شيئاً من الحرية . وما رأيك في اطفال يشفق عليهم اباؤهم واساتذتهم ان يتخذوا العربة دون رقيب ليذهبوا الى متحف من المتاحف

حظ اللاتينيين قليل من الارادة وكيف يعظم حظهم منها وهم خاضعون لسلطة الاسرة اطفالا ولسلطة المدرسة شباناً ، فاذا بلغوا سن الرجال اسرعوا الى حماية الدولة فطلبوها وتهالكوا عليها

حظهم من التسامح قليل وكيف يعظم حظهم منه وهم لا يشعرون من حولهم الا بالتعصب في كل شيء . تعصب في الدين وتعصب في التعليم . فهم مترددون بين التعصب الديني وبين التعصب الثوري . وليس من حولهم ما يحبب اليهم حرية الرأي . فاساتذة الجامعة واساتذة المدارس الدينية لا يضمر بعضهم لبعض الا بغضاً وحقداً وازدراء . وما بهذه الطريقة يستطيع الاساتذة في الجامعة او في المدارس الدينية ان يصلوا بتلاميذهم الى هذا الجو الطلق جو البحث العلمي الصحيح . ولقد يظهر ان التعصب اشد عيوب الامم اللاتينية وانه سينتهي بها الى الانحطاط الذي ليس دونه انحطاط . لقد فقدت اسبانيا مستعمراتها كافة

فلم يمنعها ذلك ان تمضي في خلافها الديني ويظهر مثل ذلك في ايطاليا ومثله في فرنسا . ولعل هذا العيب يفسر ما نشهد من ان هذه الامم اللاتينية التي كانت على رأس الامم المتحضرة قد اخذت تنحط عن مكانتها فاذا اصابها الانحطاط الشديد فسيكون لاساتذة الجامعة واساتذة المدارس الدينية من التأثير فيه حظ عظيم

٢

المناهج النفسية للتربية

الامر في التربيــة كالامر في التعليم . يجب ان يستحيل الشعوري الى لاشعورى . وربما كان ذلك اظهر في التربية منه في التعليم فان الاخلاق والخلال لا تكسب بالمنطق او البحث النظرى وانما تكسب بالتمرين والتدريب . ومن هذه الاخلاق ما هو وراثي وهي اخلاق الشعوب . فهذه الاخلاق محتاجة الى قرون لتكسب واثر التربية فيها قليل ولـكن التربية مع ذلك تستطيع ان تقويها وتنميها . ولقد يحتاج المربي الى كتب مفصلة في تطبيق هذه النظرية التجريبية دائماً التي تنال التربية والتعليم معاً ولـكني اكتفي بامثال قليلة سهلة :

تنمية الملاحظة والدقة : هاتان خصلتان تشتد الحاجة اليهما في كل وقت وتقل العناية بهما دائماً . حتى قال « بلاكي » (Blakie) « من الناس من يذهب مفتوح العينين ولـكنه لا يرى شيئاً وغريب جداً ان نحدق ولا نرى . ذلك لان اعيننا قد تعودت النظر في الـكتب لا في غيرها ففقدت القدرة على تحقيق العناية التي وجدت من اجلها . فانـنظر اذن الى التعليم الاولي الذى يعلم الطفل ان ينظر فيرى وينبها الى ما يمكن ان يفوته لننظر اليه كانه التعليم الصحيح »

اتظن ان هناك حاجة الى طرق غريبة يجب اتخاذها لتربية الملاحظة والدقة ؟ كلا ! يجب ان تتخذ طريقة سهلة ولـكنها مجهولة . يجب أن ينتفع باوقات الرياضة التي يقضيها التلاميذ متنزهين . فيؤخذ التلميذ بان ينظر جيداً ويرى جيداً ويصف ما نظر ورأى وصفاً دقيقاً بقدر الاستطاعة . وليس يجب ان يؤخذ التلميذ بان ينظر كل شيء فيراه ويصفه وانما يجب ان ينبه

التلميذ الى شيء صغير كنافذة من النوافذ او شكل عربة من العربات او جزء من النافذة او جزء من العربة . فاذا مضى اسبوع على هذا النحو من التمرين ثم سألت التلميذ ان يصف ما رأى دهشت لما تجد من دقة لم تكن تنتظرها . ومن تزال تنتقل به في هذا السلم قليلاً قليلاً حتى تصل به الى ان يرى اجمالا ما كان يرى تفصيلا . وهنا تستطيع ان تستغني عن دروس الانشاء الفارغة السخيفة التي يصف فيها التلميذ زوابع لم يرها ومعارك وقعت بين أبطال لم يسمع عنهم الا في الكتب . تستطيع ان تستغني عن هذا الانشاء وتكلف التلميذ ان يصف ما رأى وصفاً دقيقاً بقدر الاستطاعة وان يقدم لك الى جانب هذا الوصف صورة مجملة ليس يعنينا منها القسم الفني وانما تعنينا منها الدقة وحسن الملاحظة . هنالك يشعر التلميذ بضعف ملاحظته وقلة حظه من الدقة . وهناك يشعر بالحاجة الى أن يعيد الملاحظة والتحديق فيما رأى ووصف . فقد يخيل الينا حين نمر مرات متعددة امام شيء من الاشياء اننا قد احسنا علمه واتقناه حتى اذا أردنا ان نعيد ما علمنا في وصف او رسم عرفنا ان قد كان علمنا ناقصاً نقصاً شديداً . فلا بد اذن من اعادة النظر والملاحظة والوصف

هذه طريقة سهلة ولكن أساتذة الجامعة يجهلونها الجهل كله . ولقد رأيت في بلد من بلاد أوربا عجيب طائفة من تلاميذ مدرسة المعلمين فلاحظتهم فاذا هم لا ينظرون الى ما حولهم ولا يدرسون هذا البلد درساً قائماً على الملاحظة وانما يدرسونه في الكتب ويبحثون عن آراء رآها غيرهم فيه من قبل ليستعيروها دون ان يكونوا لانفسهم منها رأياً خاصاً

تنمية الميل الى النظام والتضامن وقوة الحكم وما يشبهها : هذه الخلال من أشد الاشياء لزوماً في الحياة . ولهذا عني بها الانجليز عناية شديدة تنموها في نفوس الشبان بواسطة الالعاب التي يسمونها ألعاباً مربية والتي لا أتعرض لوصفها في هذا الكتاب لانها خطرة شاقة فلن يرضى عنها الفرنسيون الذين يحبون ابناءهم ويشفقون عليهم من الخطر اشفاقاً شديداً . فكلنا يعلم ان الاسر الفرنسية تكره أن يتعرض ابناؤها للعنف والخطر وان المحاكم قد جعلت مدير المدرسة مسئولا عما يمكن ان ينال التلميذ من شر واذن فلن يرضى الاباء ولا الاساتذة عن مثل هذه الالعاب فلا فائدة من تفصيلها ومع ذلك فأثرها في

التربية عظيم لانها تبعث في نفس الطالب الشعور بالقوة والتبعة والتضامن وما اليها من الصفات التي ضمنت للانجليز السيادة . ويكفي ان ادل على ما بيننا وبين الانجليز من فرق بمثل ذكرته في بعض كتبي فدهش له كثير من الناس . اذا استبق الانجليز والفرنسيون في لعب الكرة كان الفوز للانجليز دائماً . لان الشاب الانجليزي أثناء اللعب يحرص لا على ان يفوز هو بل على أن تفوز جماعته فاذا احس ان الحظ سيحول بينه وبين ان ينال الكرة أعان رفيقه على ان ينالها . بينما الشاب الفرنسي لا يفكر الا في نفسه فاما ان يفوز هو واما الا يفوز احد . فاذا اخطأه الحظ لم يعن رفاقه ولم يفكر في اعانتهم . لانه لا يشعر بهذا التضامن وانما يشعر بنفسه ليس غير . ولهذا الخلق أثره في حياتنا العامة فالفرنسي اثر شديد الاثرة في جميع أطوال حياته وقد جر علينا هذا الخلق مصائب وآثاماً ما نزال نذكر بعضها في الحرب الاخيرة

هذ الالعاب التي لا نقدرها ويقدرها الانجليز تكون في نفوس الشبان خلقاً جليل الخطر يكلف به الانجليز كلفاً شديداً وهو ضبط النفس . يكلفون به كلفاً شديداً حتى ان أحدهم اذا شعر بضعف هذا الخلق عنده تكلف الخطر وتجشم الهول لتنميته وتقويته . ولقد رأيت ضابطاً انجليزياً في اقليم من أقاليم الهند الوسطى موبوء تنتشر فيه الافاعي والحيوانات المفترسة بحيث يتعرض من خرج وحده أثناء الليل لضروب الهلاك . رأيت هذا الضابط ذات ليلة يخرج من الفندق وقد آوى الناس الى مساكنهم فسألته اين يذهب وحده في هذا الاقليم الخطر . فاجاب في خجل احمر له وجهه انه يشعر بضعف قدرته على ضبط النفس فهو يخرج ليكتسب هذا الخلق وقد عرفت بعد ذلك انه كان يخرج ليكمن للنمر في مخبأ بعيد ليس من الممكن ان تناله فيه المعونة . وهذا خطر جداً فقد يمكث الكامن فيه ساعات وربما مكث الليلة كلها دون أن يرى شيئاً ولكنه قد يرى النمر وهو ملزم ان يتحدث الى نفسه طول كمونه بما ينتظره من الخطر وان يستعد له فاذا أقبل النمر وجب على الكامن ان يكون من حضور الذهن ورباطة الجأش بحيث يستطيع ان يصوب النار الى رأس النمر فيقتله في ثانيتين او ثلاث لانه ان اخطأه او جرحه فهو مقتول لا محالة . بهذا التعرض للخطر يكون الانجليز مزاياهم الخلقية وبهذه المزايا يسودون العالم

تنمية الارادة ومضاء العزم : مثل هذين الخلقين وراثي في اكثرالاحيان. ومع ذلك فتستطيع التربية ان تنميه قليلا او كثيراً . وليس الى ذلك من سبيل الا ان يوضع التلميذ غالباً في مراكز تضطره الى ان يعزم ويمضي عزمه دون ان يهن او يضعف . ولقد تحدث «بلا كي» عن الشاعر «وردوث» (Wordswasth) انه اعتزم ذات يوم ان يصعد في الجبل فاعترضته زوبعة ولكنه لم يعدل عن عزمه معلناً ان تغيير الرجل رأيه فيما اعتزم لان عائقاً عرض له لا يخلو من خطر على الاخلاق . يعجب الانجليز بذوي الارادة والعزائم الماضية . فيحبونهم ويكرمونهم مهما تكن جنسيتهم ولقد خطب اللورد « روسبري » (Rosebevy) في مدرسة « ابسوم » (Fpsom) فذكر هذا الخلق عند الانجليز وذكر تكريمهم للرجل من حيث هو رجل مهما تكن امته او شعبه ومهما تكن صلة المودة او العداوة بينهم وبين هـذه الامة . ذكر اعجاب الانجليز بالـكلونيل « مرشان » (Marchaun) الذي تكلف الاهوال في سياحة افريقية دامت ثلاث سنين وعرضت السائح واصحابه لاخطار مختلفة متنوعة وذكر اعجاب الانجليز « بجاريبلدي » لا لشيء الا لانه رجل حقاً

خلق الارادة ومضاء العزم ينقص اللاتينيين كثيراً وهم مع ذلك في اشد الحاجة اليه . فلولا ضعف هذا الخلق في انفس الفرنسيين لما كانت الهزيمة الاخيرة فقد كان لدينا جيش لا تنقصه الشجاعة ولا الذكاء وانما كانت تنقصه الارادة ومضاء العزم والقدرة على الابتكار والاعتماد على النفس . فكان رؤساء الجيش على اختلاف طبقاتهم ضعافاً مترددين بينما كان رؤساء الالمان من القوة الخلقية ومضاء العزيمة والاعتماد على النفس بحيث كان كل واحد منهم يقدم على الشيء شاعراً بخطر ما يقدم عليه . فلا بد اذن من تربية هذا الخلق في أنفسنا والسبيل الى ذلك كما قلنا هو ان يوضع التلميذ غالباً بحيث يحتاج الى ان يعزم وحده فاذا عزم مضى في عزمه حتى اتمه كله

الفصل الثالث

تعليم الاخلاق

هناك مسألة من بعد الأثر في التربية بحيث لا نستطيع أن نهملها حين نبحث عن التربية أصولها ومناهجها بل بحيث نضطر الى آن نعقد لها فصلاً خاصاً وهي مسألة تعليم الاخلاق . ذلك ان المنزلة الخلقية هي مقياس ما تصل اليه الشعوب من الحضارة والقوة . وليس من شك في أن الاخلاق تتغير بتغير الازمنة والشعوب ولكن ليس من شك أيضاً في أن الاخلاق ثابتة بالقياس الى شعب بعينه في زمن بعينه . واذا كانت الاخلاق مقياس الحضارة والقوة فليس من نزاع في انها اذا تزعزعت أو انهار بناؤها فقد فسدت الحضارة وانحلت القوة وتعرض وجود الشعب للخطر

يجب أن تكون التربية الخلقية ككل نوع من أنواع التربية معتمدة على التجربة وحدها لا على المواعظ والحكم التي امتلأت بها الكتب والتي يستظهرها الاطفال في غير جدوى . وليس في التعليم الخلقي خير اذا لم يستطع الاستاذ أن ينبه تلميذه الى الخير والشر بواسطة التجربة . ذلك ان التجربة هي التي تعلم الرجال وهي التي تعلم الاطفال أيضاً . والذين يريدون أن تقوم الحكم والمواعظ مقام التجربة يجهلون نفسية الاطفال جهلا تاماً . فيجب اذن أن يعتمد على التجربة وحدها وأن يكون هذا الانكار العام الذي يتبع عملاً من الاعمال مرشداً للطفل الى أن هذا العمل شر وهذا الاقرار العام الذي يتبع عملا من الاعمال مرشداً له الى أن هذا العمل خير

يجب أن تعلمه النتائج الحسنة أو السيئة ما للاعمال من نفع أو ضر ولا سيما اذا أخذ دائماً باحتمال نتائج الاعمال التي يأتيها واصلاح ما يجر على غيره من ضرر . يجب أن تعلمه التجربة ان العمل والاقتصاد والوفاء وحب الدرس كلها خلال نافعة قيمة لانها تصلح من أمره وترضي ضميره . ثم لن يصل المعلم الى اقناع الطفل بهذه الحقائق كلها الا اذا اعتمد على التجربة أولا ثم صاغ نتائج هذه التجربة في صيغ مجملة سهلة

ولن تتم التربية الخلقية الا اذا أصبح عمل الخير واجتناب الشر عادة لا شعورية يأتيها الطفل دون أن يشعر بشيء . فمن الخير ان تقاوم الميل الى منكر ولكن خيراً من ذلك ألاّ تشعر بهذا الميل . يجب أن يكون ضبط النفس أساس التربية الخلقية فان لهذه الملكة الأثر الاعظم في الحياة الصالحة . ولهذا عني بها الانجليز عناية خاصة فوفقوا الى الشيء الكثير . فهم يأخذون الطفل بألا يعتمد الا على نفسه في كل شيء بينما نعوده نحن ألا يعتمد على نفسه في شيء ويكفي أن تضع الطفل الانجليزي والطفل الفرنسي أمام أمر ذي بال فسترى من الانجليزي عزماً ومضياً وسترى من الفرنسي تردداً واضطراباً . وسينبئك هذا بالفرق بين التربيتين

ومن أعظم المؤثرات في التربية شيء تعودنا ألا نقدره كما ينبغي وهو البيئة . ذلك ان الطفل مفطور على التقليد يأتيه دون أن يشعر به وهو يقلد بطبيعة الحال من يحيط به من أهله وذويه . وهذا التقليد اللاشعوري هو الذي يكون في نفس الطفل مع سهولة ويسر غرائز وعادات لم تكن التربية لتصل الى تكوينها الا بعد عسر وجهد . فاذا حسنت البيئة حسنت آثارها في تكوين الطفل واذا ساءت البيئة ساءت نتائجها في هذا التكوين . وصادق جداً هذا المثل الفرنسي القائل « نبئني من عشيرك أنبئك من أنت » . ولكن البيئة الفرنسية سيئة الأثر في التربية لان الاسرة الفرنسية شديدة الضعف في الاشراف على أبنائها تحبهم وتعطف عليهم ويمنعها ذلك الحب وهذا العطف من أن تسيطر عليهم كما ينبغي . فهي لا تقاوم رذائلهم ولا تشجعهم على الخير . وهي تشعر بهذا الضعف وتحس هذا النقص وتعترف بهما وتحاول أن تتقي شرهما فتسرع بارسال الاطفال الى المدرسة معتمدة على أن سلطان الاساتذة سيمضي ما عجز سلطان الاسرة عن امضائه . ولكن المدرسة بيئة شديدة السوء قبيحة الأثر يخضع الاطفال للمراقبين ولكنهم يكرهون المراقبين ويكرههم المراقبون . فليس من سبيل الى التقليد وانما السبيل الى الغش والختل والى المكر والمواربة

أما الاستاذ فليس يعنيه أن يكون له مع التلميذ سلطان بل ليس يعنيه الا أن يلقي درسه سواء عليه أن ينتفع التلاميذ أو ألا ينتفعوا . سواء عليه أن

يعلموا أو أن يجهلوا ولقد صدق « فوييه » (Fouillée) حين قال « يصل الاستاذ الى غايته من علم الاخلاق اذا قال ان حب الاسرة والموت في سبيل الوطن واجبان » . ثم لا يقف الامر عند هذا الحد بل يقوم الاساتذة في اكثر الاحيان مقام المحاربين للاخلاق الشاكين في قيمتها وعظيم جداً ألا يعلن الاستاذ أمام الاطفال حربه على الاخلاق والعادات فيكتفي بالصمت المؤذن بالانكار أو بهذه السخرية الخفيفة التي تؤذن بالشك . والاطفال يفهمون هذا ويقدرونه فينكرون الاخلاق أو يشكون فيها . وليس هنالك شيء أشد خطراً على تكوين الطفل بل على وجود الشعوب من هذا المسلك السيء . ذلك ان الاساتذة الذين تعلموا الشك وآثروه وبسطوا سلطانه على كل شيء يجهلون ان الشر كل الشر انما هو في تعليم الاطفال أن يشكو الآن الامم لا تقوم على الشك والريب وانما تقوم على الايمان واليقين . وليس لأمة من الامم وجود قوي منتج الا اذا كان لها ايمان قوي صادق بمثل أعلى اتخذته لنفسها مطمحاً . ليكن هذا المثل مجد الوطن أو مجد المسيح أو عظمة الله فليس ذلك يعنينا . وانما الذي يعنينا هو أن يوجد هذا المثل وتلتف حوله القلوب . فذلك الشرط الاساسي لوجود الشعوب وخروجها من حياة الهمجية والجهل الى حياة الحضارة والرقي . فاذا ضعف هذا المثل أو ضعف الايمان به فمد بدأت وحدة الامة تتفكك وأخذت قوتها في الانحلال . ذلك لان هذا المثل الاعلى يجمع القلوب فيوجد أشياء مشتركة هي التي تكون الجماعات وهي تذهب بذهاب هذا المثل أو ضعفه وأي شيء يعين على ذهاب المثل أو ضعفه اكثر من تعليم الاطفال أن ينكروه أو يشكوا فيه

أشد ما يعترض تعليم الاخلاق من المصاعب في الشعوب الكاثوليكية هو أن الاخلاق عند هذه الشعوب لم تعتمد أثناء قرون طويلة الا على أساس واحد هو الدين فالاخلاق عند هذه الشعوب كانت تقوم على هذه القاعدة وهي أن هنالك الهاً قوياً قد أعد العقاب الشديد لمن خرج عن أمره . وقد تزعزع الدين وضعف سلطانه ففقدت الاخلاق أساسها المتين . ولو ان الاخلاق لم تعتمد عند هذه الشعوب على الدين لما أصابها ما يصيبها اليوم وقد كان ذلك يسيراً فان الفرق بين الاخلاق والدين عظيم . فبينما نحن نستطيع بمقتضى

الظروف والاحوال أن نقبل هذا الدين أو نرفضه فليس لنا سبيل الى أن نتخلص من الاخلاق ومع ان الاخلاق متصلة بالدين قائمة عليه عند الامم السامية التي ورثناها فهي منفصلة عن الدين مستقلة عند شعوب أخرى كشعوب الهند مثلا. فاذا استطعنا أن نفرق بين الدين والاخلاق سهل علينا تعليم الاخلاق بطريقة منتجة. وأمر هذه التفرقة يسير. فيكفي أن نفكر قليلا لنعلم ان الدين والاخلاق شيئان متغايران بحيث تتغير الديانات وتتبدل دون أن تتغير أصول الاخلاق أو تتبدل[1]

قلت ان تعليم الاخلاق يستلزم الاجتهاد في تعويد الطفل أن يعمل الخير ويجتنب الشر لا في أن تلقى اليه الحكم والمواعظ في دروس لا خير فيها. ومع ذلك فاذا لم يجد الاستاذ بداً من القاء الدروس فليسلك في ذلك سبيلاً سهلة تلائم قوة الطفل فيبتدئ بدرس الاخلاق في عالم الحيوان مبيناً للطفل ان الجماعة الحيوانية لا تكاد تأتلف حتى تكون لها أخلاق وعادات ومبيناً له كيف يستطيع الانسان أن يروض الحيوان من الاخلاق والعادات على من لم يألف. ثم ينتقل الى تاريخ الحضارة فيبين بواسطة هذا التاريخ كيف خرجت الامم من جهالتها حين كونت أخلاقها وكيف عادت الى هذه الجهالة حين فرطت في هذه الاخلاق. ثم ينتقل من هذه الاشياء العامة الى ما هو أخص منها فيبين ان الطفل فرد من الاسرة محتاج اليها وان الاسرة جزء من الجماعة محتاجة اليها وان هذا هو أساس الحياة الاجتماعيـة وان حاجة الفرد الى الجماعة أشد

---

(١) نلاحظ ان المؤلف يناقض نفسه بعض الشيء فقد أثبت فيما تقدم ان الاخلاق تختلف باختلاف الازمنة والشعوب. وهو هنا يثبت ان لها اصولاً لا تتغير. وفي الحق انا لا نعلم لم تتغير الديانات ولا تتغير الاخلاق. فان قانون التطور الاجتماعي اما أن يمتد الى كل شيء فينال الديانات والاخلاق واللغات والنظم السياسية والاجتماعية واما الا يوجد ولا يكون قانوناً والحق ان التطور ينال كل شيء اجتماعي لانه ينال الجماعة نفسها. فليس بين الدين والاخلاق فرق في ذلك. كما انه ليس من الحق ما قد يفهم من عبارة المؤلف من ان الجماعة الانسانية أشد احتياجاً الى الاخلاق منها الى الدين. فالاخلاق والدين واللغة والنظام السياسي كل اولئك من المقومات التي دل الاستقراء الاجتماعي على ان شعباً من الشعوب لم يستطع ان يوجد بدونها. ولسنا نعلم شعباً وجد بلا دين كما اننا لا نعلم شعبا وجد بلا اخلاق

[المترجم]

من حاجة الجماعة الى الفرد . فالفرد مطالب اذن باكبار الجماعة اكثر مما تطالب الجماعة باحترام الفرد[١]

ليس مصدر السيادة الانجليزية مذهبهم في التربيـة ولا أساطيلهم التى لا تحصى ولا ثروتهم الضخمة . وانما هو المثل الاعلى الذي اتخذه الانجليز لانفسهم في الحياة . فهم أمة شديدة الحرص على عاداتها . شديدة الاكبار والطاعة لرؤسائها . ولها اله وطني قد أكبرته وأذعنت له واحتكرته لنفسها احتكاراً . أصبح اله التوراة الهاً انجليزياً لا يعمل الا للانجليز ولا يرضى الا عن الانجليز . وقد وضع هذا الاله لشعبه أخلاقاً وقوانين تقرر ان المنفعة الانجليزية وحدها هي مقياس الخير والشر وان الانجليز وحدهم هم الناس واما من عداهم من الامم والشعوب فقطعان لا قيمة لها

والانجليز حين يستعمرون البلاد البعيدة يسمعون لالههم ويطيعون وكذلك فعل العرب حين انطلقوا باسم محمد يفتحون جزءاً عظيماً من العالم اليوناني الروماني ويكوّنون دولة عظيمة الخطر في التاريخ . أمام هذه الديانات يجب أن تنحني مهما تكن قيمتها الخاصة . فهي تكوّن عظمة الامم[٢]

ليس للعقل أثر في تكوين السنن والمثل العليا . فاذا تعرض العقل لهـذه السنن والمثل فلن يتعرض لها الا بالنقد . واذا وضعت هذه الاشياء موضع النقد

---

(١) أشك كل الشك في ملاءمة هذا المنهج لعقل الطفل . فقليل من الرجال من يفهم استنباط الاخلاق الانسانية من الاخلاق الحيوانية او قياسها اليها . والطفل أضيق عقلا من ان يستنبط الاخلاق من تاريخ الحضارة او ان يفهم هذه الصلات الاجتماعية التي فصلها المؤلف . ولو ان لي ان في هـذا الموضوع رأياً لكرهت أن تلقى على الاطفال دروس في الاخلاق وأحببت الاجتهاد في اصلاح البيئة بحيث لا يكاد الطفل يجد حوله الا المثل الصالحة

[المترجم]

(٢) يظهر ان المؤلف لم يوفق في هذا الفصل . فليس للانجليز اله وطني كاله التوراة . ومهما تكن عظمة الانجليز وسيادتهم فانهم لا يصلحون مثلا للاخلاق . والمسألة هى ان نعلم أى الشعبين أحق بالاجلال والاكبار . الشعب الذي يتخذ منفعته مقياس الخير والشر فيزدري في سبيلها الحق والعدل . ام الشعب الذي يتخذ الحق والعدل مقياساً لمنفعته فيري ان حريته ورقيه في احترام حرية الشعوب ورقيها . ولم يوفق المؤلف حين شبه الانجليز بالعرب . فقد كان العرب مخلصين فاتحين انطلقوا يبشرون ويستعمرون . أما الانجليز فاهل دهاء ومكر

[المترجم]

فذلك الدليل على أنها قد أخذت تنهار . ولم توضع سنن الانجليز ومثلهم موضع النقد فهم لا ينقدونها ولا يشكون فيها . وللانجليز احساس خاص بالحقائق الواقعة فهم يوفقون دائماً بين آمالهم وأطوارهم الواقعة ومن هنا كانوا أقل الامم اضطراباً لما ينالهم من الاحداث

أما الفرنسيون فقد هدموا بناءهم القديم وقضوا على مثلهم العليا في عنف وضوضاء . ثم حاولوا أن يستبدلوا من هـذه المثل مثلا أخرى طلبوها الى العقل ولـكن العقل الانساني ضعيف، أضعف من أن يخلق مقومات الشعوب . والفرنسيون لا يشعرون بالحقائق الواقعة فهم مضطربون ينقصهم الصبر والثبات ومضي العزم

على ان مثلا واحداً قد استطاع أن يبقى لنا وهو فكرة الوطن . فحول هذه الفكرة نلتف وبهذه الفكرة نوجد ويجب أن نقويها ونبسط سلطانها على النفوس . ليس الانجليز في حاجة الى تقوية فكرة الوطن لانها ثابتة في نفوسهم وفكرة الوطن هي التي أوجدت المانيا القوية الضخمة . أما الامريكيون فحظهم من هذه الفكرة ضعيف لانهم امة ناشئة تتجدد كل يوم بحكم المهاجرة . ولذلك يحرصون على فكرة الوطن فيقوونها وينمونها بينما رجال الجامعة عندنا يسخرون منها ويزدرونها لانهم يشكون فيها ولان المذاهب الفلسفية والسياسية المختلفة قد استأثرت بعقولهم وصرفتهم عن كل فكرة لا تذعن للعقل . ومع ذلك فاذا حرمنا الفلسفة التي تفسر لنا ضرورة هذه المثل العليا فخليق بنا الا ننسى على اقل تقدير ان الامم لا توجد بدونها . واذن فنقد فكرة الوطنية والشك فيها ليس اقل من انه تعريض للوطن لخطر الحروب والغارات والثورات وانتظار قيصر ليخلصه . كل هذه النكبات التي ختم بها تاريخ الامم الميتة

ولقد قال « ريمون بوانكاريه » في خطبة له :

« يظهر ان ريحاً خبيثة هبت منذ حين على بعض النفوس الفرنسية فمحت منها ذكريات كنا نظن أنها خالدة . فقد ظهرت حتى في الجامعة عقول افسدها نوع من التصوف في حب الانسانية . وظهر قوم لا يرون في العلم ذي الالوان الثلاثة شعار وحدتنا الوطنية والرمز المقدس لا لامنا وآمالنا وينطقون بالفاظ

ا ئمة ينالون بها الجيش . لعن الله هـذه الفلسفة الـكاذبة التي تستعيرها هذه لآثام والجرائم تقترف على الوطن . فهي تتخذ الانسانية وسيلة الى ازدراء الشعور الذي هو اشد الاشـياء تأثيراً في تطهير القلوب وتقوية الاخلاق ورفع القدر

مصدر هذا الميل الى ازدراء الوطنية واضح ولـكنه غير شريف والظما الى انقطاع المساواة وان يمتاز بعض الناس من بعض ، فان اكثر اساتذة الجامعة قد خرجوا من ادنى الطبقات فلما وصلوا الى مكانتهم ونالوا شهاداتهم ظنوا انهم ممتازون وارادوا ان يحتفظوا بهذا الامتياز والا تكون بينهم وبين طبقاتهم التي خرجوا منها مخالطة او امتزاج . وقد بين ذلك « جورج جولو » في مقال نشره في مجلة العالمين واثبت فيه ان من اهم الاسباب التي تحمل الاساتذة والمفكرين على حب الانسانيـة وبغض الوطن وازدراء الجيش ان الخدمة العسكرية العامة تضطرهم الى حياة الثكنات فيعاشرون فيها ناساً من العمال واهل الريف ليس لهم حظ من التفكير ولا الحياة العقلية الراقية فيؤلمهم ذلك ويجرحهم . واذكان الآثم يجتهد دائماً في ان يجد فعلة لاثمه فهم يتخذون الديمقراطية وسيلة الى حرب الديمقراطية يزعمون انهم يريدون تحرير العمال والطبقات الدنيا بالغاء الجيش مع انهم لا يريدون بذلك الا ان يمتازوا وان يسودوا ومع ان آراءهم لو انتصرت لذل هؤلاء الناس الذين يريد المفكرون ان يجعلوهم اعزاء . ان تاريخ الامم التي فقدت اوطانها لبنبوّنا بخطر الوطنية وعظم شأنها واشتداد الحاجة اليها . فلننظر الى البولونيين والارلنديين واهل إيناس وما يصيبهم كل يوم من ظلم الاجنبي وعبثه وما ينالهم من تعذيب ونفي وتشريد . فقد هؤلاء الناس اوطانهم ففقدوا الحق في كل شيء حتى في ان يكون لهم تاريخ . وكيف تكبر الوطن ونعترف به اذا لم تكبر الجيش الذي يدفع عنه ويحميه ؟ نعم . ان التجنيد ثقيل يكلف كثيراً من الاموال والمشاق في اوروبا ولـكنه شيء ضروري وليس من سبيل الى الاستغناء عنه الا اذا امنا كل عدو . ما بالنا لا نطلب الغاء الشرطة ؟ لاننا نعلم انها ان الغيت تعرضنا للسرقة والقتل وعبث العابثين فذلك نفسه شأن الجيش . ولن نستطيع ان نستغني عن جيش ما دام لنا اعداء لن ينزعوا سلاحهم ولن يكفوا عن ترقبنا وتربص الدوائر بنا

الفصل الرابع

تعليم التاريخ والآداب

١

تعليم التاريخ

اساتذة الجامعة انفسهم هم الذين اثقلوا برنامج التاريخ وهم الذين احسوا فساد هذا البرنامج وهم اشد الناس عداء له امام لجنة التحقيق . ويكفي ان تنظر فيما قالوا لنعلم مقدار شعورهم بالخطأ الذي تورطوا فيه حين حمّلوا برنامج التاريخ ما لا يحتمل عقول الاطفال فقد يرى احدهم وهو المسيو « جريار » أن التاريخ اما ان يكون فناً من فنون الذاكرة واما ان يكون ضربا من ضروب الفلسفة . فهو اذا كان فناً من فنون الذاكرة كما هي الحال في الجامعة لم ينفع ولم يفد وربما ضر واساء . وهو لن يكون ضربا من ضروب الفلسفة الا مع تقدم السن ونمو العقل والقدرة على التفكير . وقد اختصر مسيو « جريار » وصف تعليم التاريخ بانه تعب ضائع واختصره المسيو « لافيس » بانه درس لما لا يفهم . وربما كان الوجه في تعليم التاريخ ان يعدل عن الطريقة المألوفة التي تكلف التلاميذ استظهار الاسماء والانساب والحوادث والسنين في غير فائدة ولا جدوى وبدون فهم ولا تعقل الى طريقة اخرى يكتفى فيها باظهار التلاميذ على صور مجلة واضحة لتاريخ الشعوب القويمة والحديثة وبتاريخ حضارتهم بنوع خاص

وربما كان الوجه ايضاً ان يسلك في هذا النحو من التعلم السبيل العملي فتعرض على التلاميذ صور فوتوغرافية لآثار الحضارة ويطوف بهم الاساتذة في المتاحف فهم اذا رأوا آثار الحضارة استطاعوا ان يفهموها ويفكروا فيها بنوع ما . بينما الاستظهار والحفظ عن ظهر قلب لا يفيدان الا التعب والكد

اضف الى ذلك ان درس التاريخ كما هو الآن لا يخلو من مضرة اخرى وهي ان حوادث التاريخ الكبرى انما تمثل انتصار الرذيلة وفوز الغش والمكر

والخديعة والظلم وليس من شأن هـذه الاشياء ان تكوّن العقول وتهذيب الاخلاق . ومضرة اخرى ليست اقل خطراً وهي أن المؤرخين لا يتفقون في قدر الحوادث ولا في فهمها وتأويلها مهما يكن نصيبهم من الذكاء والتعمق . والطفل عاجز عن ان يعارن بين آرائهم المختلفة ويحكم فيها . فدرس التاريخ في الـكتب اذن بعيد كل البعد عن أن يستقيم منه للتلميذ رأي صحيح

٢
تعليم الآداب

ينحصر تعليم الجامعة للآداب في تحليل بعض الـكتّاب المعروفين وتعبير شيء من آثارهم تفسيراً نحوياً وفي هذه الدقائق الـكثيرة العقيمة التي يتعنها الاساتذة ولا ينتفع منها التلاميذ . وقد شعر اساتذة الجامعة انفسهم بعقم هـذا التعليم ووصفه المسيو « فوييه » وصفاً دقيقاً فقال انه مفسد للاخلاق مثبط للهمم لانه لا يصل بالتلميذ الى جوهر الآداب ولا تتعدى بها قشورها ولا يتجاوز به الفاظاً واصطلاحات يختلف فيها الشراح والمفسرون

ولو اننا اردنا ان ندرس الآداب درساً نافعاً لبدأنا بكتب النحو والمختارات فخرقناها نزقاً ولاستبدلنا منها طائفة من آيات الادب فاخذنا التلاميذ بقراءتها وتفهمها آية آية وكتابا كتابا وللاءمنا بين ما يقرأون وما نكلفهم ان يكتبوا من موضوعات الانشاء ولقارنا بين ما يكتبون وما يقرأون فما هي الا ان يظهر للتلميذ ضعفه ونقصه وموضع الخطأ فيما كتب وما بينه وبين ما قرأ من فرق فيصلح التلميذ بنفسه هذا كله ويصل الى ما عجزت الجامعة عن ان تصل به اليه من اتقان الفرنسية كلاما وكتابة وفهماً ومن اتقان الآداب والاحاطة بآياتها وبدائعها

غريب ان تـكون الآداب الشيء الوحيد الذي يدرس بالقراءة والشيء الوحيد الذي تحظر الجامعة القراءة فيه . ولولا ان التلاميذ يختلسون الوقت وينتهزون الفرص فيقرأون خفية لكان حظهم من لغتهم اقل واضعف منه الآن

هذه الطريقة التي اشرت اليها نافعة منتجة بالقياس الى الآداب الفرنسية والى الآداب الاجنبية قديمة وحديثة فخير للتلميذ ان يقرأ « هوميروس » كله

في ترجمة صحيحة متقنة من ان يمضي السنين ليفسر منه صحفاً قليلة بواسطة المعجمات . وقل مثل هذا في غير « هوميروس » وقل مثل هـذا في غير الادب القديم

الفصل الخامس

تعليم اللغات

نعلم ان الناس يختلفون اختلافاً شديداً في الاستعداد للدرس والتحصيل . فهذا مستعد لاتقان الميكانيكا عاجز عن اتقان التصوير وهذا مستعد للنبوغ في الطبيعة عاجز عن تصور الموسيقى . والناس جميعاً يعلمون هذا ويقدرونه وكان يجب على الاساتذة أن يتقنوه وأن يقدروا استعداد تلاميـذهم ويوجهوا كلا منهم الى الفن الذي يظهر ميله اليه . ولـكن هناك شيئاً يشترك الناس جميعاً في الاستعداد لاتقانه مهما تختلف ميولهم وحظوظهم من الذكاء وهو اللغة فالاطفال جميعاً يتعلمون لغة البيئة التي يعيشون فيها ويتكلمونها دون درس ظاهر أو عناء بين . ولا يقصر في ذلك منهم الا من أصابه مرض يضطر أهله الى أن يذهبوا به الى المستشفى . وليس الامر في ذلك مقصوراً على اللغة التي يتعلمها الطفل في أسرته وانما يتناول اللغات الاجنبية أيضاً . فيكفي أن ينقل الطفل من وطنه الى بلد أجنبية ليتعلم لغة هذا البلد ويتكلمها في أشهر قليلة . ولـكن الجامعـة عاجزة كل العجز عن تعليم هذه اللغات التي يتفق الناس في حسن الاستعداد لها . وامتحانات الجامعة شاهدة بعجزها هـذا . فلا تكاد ترى في هذه الامتحانات طالباً يحسن قراءة لغة من اللغات أو تكلمها أو فهمها دون الاستعانة بالمعجم . ومع هذا فالجامعة ليست جزعة ولا وجلة وهي تعتقد أن تعليمها نافع على كل حال

ولن تتغير هذه النتيجة ما دام الاساتذة على ما هم عليـه من ازدراء تعليم اللغات وسوء فهم هذا التعليم . فقد أثبت البحث أمام لجنـة التحقيق وشهد بذلك مسيو « بوانكاريه » ومسيو « برتيلو » أن الاساتذة يزدرون تعليم التلاميذ أن يتكلموا أو يكتبوا لغة من اللغات وهم يعنيهم أن يدرسوا مع تلاميذهم

كبار الكتاب والشعراء كما يفعل أساتذة الاقسام العليا في الجامعة . أما تعليم الكلام والكتابة فليس من شأنهم

ولقد شاع في الناس اعتقاد غريب هو أن الفرنسيين يفقدون ملكة تعلم اللغات . والحق ان الناس جميعاً يملكون هذه القوة ولكن الاساتذة في فرنسا يفقدون ملكة تعليم اللغات . ولو اننا أردنا أن نبين خطأ هذا الاعتقاد الشائع وتثبت أن الفرنسيين قادرون على تعلم اللغات الحية الآن كما كانوا يتعلمون اللغات الميتة قديماً لوجب علينا أن ننهج منهج بعض المدارس التي يقيمها رجال الدين . ففي هذه المدارس قسيسون ورهبان من الأنجليز والالمان وهم يتكلمون لغاتهم أثناء الدرس وأوقات الراحة فلا يجد التلاميذ مندوحة عن تكلم هذه اللغات ثم لا يلبثون أن يتقنوها ولو اننا أردنا أن نتعلم اللغات حقاً لنهجنا منهج الامم الاخرى التي تجاورنا منهج الالمان والسويسريين والهولانديين الذين يتقنون تعلم اللغات الحديثة ويزاحموننا بها في الاسواق التجارية الكبرى مزاحمة خطرة . ولقد تذهب الى « جاوى » فترى شباباً من الهولانديين لم يزوروا أوربا ولكنهم مع ذلك يتكلمون الأنجليزية والالمانية والفرنسية مع اتقان عظيم . وفي سويسرا مدارس تمكن التلميذ من ان يتكلم لغات حية ثلاثاً في ستة أشهر وللالمان براعة في اتقان اللغات الحديثة . ذلك ان هذه الامم كلها لا تأخذ التلاميذ بكتب النحو وتفسير الشعراء والكتاب وانما تأخذهم بالكلام العادي المألوف . ولقد جربت بنفسي طريقة أنصح بها لكل من أراد أن يتعلم لغة حية ذلك اني أردت أن أتعلم الأنجليزية فعمدت الى الكتب الفرنسية التي ترجمت الى هذه اللغة والتي قرأتها وأخذت أقرأ ترجمها الأنجليزية مستعيناً بالاصل قليلا قليلا . فما هي الا أن استغنيت عن الاصل ومضت في قراءة الترجمة . ثم أخذت أقرأ بعد ذلك كتباً انجليزية خالصة . فوجدت شيئاً من الصعوبة شديداً . ولكني لم ألبث أن ذللته . ومثل هذا يقال اذا أردت أن تتعلم الالمانية ولكن يجب أن تقرأ تراجم المانية لكتب انجليزية لك بها عهد . فذلك يعينك على اتقان اللغتين دون حاجة الى الاستاذ ولكن على أن تختار الكتب السهلة العادية لا آثار الكتاب والشعراء المعروفين

لن ينصح الاساتذة بهذه الطريقة لانها تغنى الناس عنهم ولكني اقدمها

الى القراء فقد يكون من بينهم من يؤذيه ضياع وقت ابنه في المدرسة فيتخذ هذه الطريقة لتعويض ما ضاع على ابنه من وقت

ولا ينبغي ان نفترض ان هـذه الطريقة تحرم التلميذ درس النحو فهو يدرس النحو احسن درس بهذه الطريقة اللاشعورية التي تحول النحو الى ملكة راسخة لا الى تكلف وتعمل [1]

---

(١) جرب هـذه الطريقة الفيلسوف الفرنسي « برجسون » في اللغة اليونانية فحمدها وحث عليها (المترجم)

الفصل السادس

تعليم الرياضة

اذا اردت ترتيب العلوم من حيث أثرها في التربيـة أمكنك ان ترتبها على هذا النحو . فاولها علم المواليد الثلاثة لانه ينمي الملاحظة . ثم يليه علم الطبيعة وعلم الـكيمياء لانهما ينميان الملاحظة والحكم معاً . ثم تلي هذا كله علوم الرياضة على اختلافها لان الناس اعتادوا ان ينظروا الى هذه العلوم كأنها علوم عقلية خالصة وان كنا سنثبت انها علوم تجريبية ايضاً وان من اليسير الاستعانة بالتجربة في تعليمها

وقد الفت الامم اللاتينية درس الرياضة وابلت فيه بلاء حسناً وتفوقت فيه على غيرها من الامم . وهي تعتقد ان اتقان هذه العلوم دليل الرقي والتفوق ولهذا تتخذ هـذه العلوم والامتحان فيها وسيلة الى دخول المدارس الراقية جداً . ويخيل الى هذه الشعوب ان من امتاز بالملكة الرياضية فقد امتاز بشيء عظيم وليس من شك في ان هذا غلو واسراف فان هذه الملكة كغيرها من الملـكات والامتياز بها لا يثبت لصاحبه فضلاً على غيره من الناس

وانظر ماذا يرى في ذلك مسيو « بوكسي » ناظر مدرسة السنترال . فهو يرى ان علوم الرياضة الاولية كالهندسة تعود الطلبة حسن الحكم ولـكنهم متى تعمقوا في علوم الرياضة الخاصة اصبحت مهارتهم الرياضية نوعاً من اللعب بالارقام والحروف والصيغ لا فائدة له اذا لم يفسر تفسيراً كافياً وهو في رأيي لا يفسر هذا التفسير

من الممكن ان تقوي العلوم الرياضية ملكة التفكير الدقيق ولـكنها لا تقوي ملكة الحكم الصحيح . وامهر الرياضيين عاجز عن ان يحسن التصرف في الحيا وقد عرف ذلك نابليون حينما كلف « لابلاس » امهر الرياضيين في عصره ان يعمل في امور ادارية وانظر كيف يقص نابليون قصص ذلك :

كان « لابلاس » امهر الرياضيين ولـكنه ما لبث ان ظهر قليل الحظ جداً من الـكفاية الادارية . ولم نكد نرى اول عمل من اعماله حتى ثبت لنا اننا

ثانيا الاختيار . فلم يكن ينظر الى مسألة ما من وجهتها الصحيحة وانما كان يبحث عن الدقائق في كل شيء ويضع كل شيء موضع الشك ويدخل الدقة الرياضية حتى في أمور الادارة »

ولقد استطاع ماهر في المكر والحيلة أن يخدع ماهراً في العلوم الرياضية نظل سنين يبيعه خطوطاً متكلفة مصطنعة على انها خطوط كبار العلماء وعظماء الناس وكان من بينها خط كليوباترا وخط المسيح وأعجب من هذا ان هذه الخطوط المزورة كانت تقدم الى المجمع العلمي

ليست علوم الرياضة في حقيقة الامر الا لغة من اللغات فليس من شأن درسها أن يقوي الذكاء أو ينميه فما عرفنا ان درس لهجة من اللهجات ينمي الذكاء . هي لغة من اللغات فيجب أن تدرس كما تدرس اليابانية أو الانجليزية وأن يبدأ بدرسها منذ الطفولة ولكن يجب أن تدرس على نحو يخالف كل المخالفة النحو الذي تدرس عليه الآن . فلو ان اللاتينيين يقدرون نفسية الاطفال لعرفوا منذ زمن طويل انه لا ينبغي أن يؤخذ الطفل بالتفكير المجرد والمقارنة بين المجردات قبل أن يعرف الاشياء المركبة ولانتفعوا بهذه النظرية في تعليم الحساب وفي تعليم النحو معاً . فالطفل أقصر من أن يفهم المجردات ويقارن بينها واذن فليس لك أن تأخذه بالحدود الرياضية والنحوية وانما ينبغي أن نشعره اولا بالاشياء المركبة بالكميات التي يراها ويمسها حتى اذا أتقن هذه المركبات اتقاناً استطاعت قوته اللاشعورية أن تستخلص منها الحدود والقوانين المجردة

واذن فيجب أن تدرس الرياضة على انها علوم تجريبية ولقد وضع مسيو « دوكلو » العضو بالمجمع العلمي رسالة عن تعليم الرياضة انتهى فيها الى مثل ما انتهيت اليه . فهو يرى أن تعليم الرياضة والهندسة بنوع خاص يجب أن يبدأ مع الطفولة وهو يرى رأي « شوبنهور » في مقت كتاب « اقليدس » والسخط عليه لانه وان كان قدم العهد قد منحه شيئاً كثيراً من الجلال لا يحبب الهندسة الى الناس وانما يبغضها اليهم تبغيضاً شديداً ولقد يصف مسيو « دوكلو » هذا الكتاب بانه شديد الاملال . وبانه غير نافع ولا سيما حين يحاول أن يثبت

حقائق يصل اليها الانسان بالحدس . فأي فائدة مثلا من اثبات أن ضلعاً ما من أضلاع المثلث أصغر من مجموع الضلعين الاخريين ثم يقول مسيو « دوكلو » انه قد أنفق ثلاثين سنة يمتحن طلاب الشهادة الثانوية فلم ير بين الطلبة واحداً من عشرين يتخيل طريقة « اقليدس » واذن فلا فائدة من اتخاذ هذه الطريقة ويحسن بالتعليم الثانوي أن يطرحها اطراحاً

قليل جداً من المؤلفين أولئك الذين حاولوا أن يدرسوا الرياضة درساً تجريبياً وليس هناك كتاب يصور هـذه العلوم تصويراً تجريبياً وفي الحق ان مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون نابغة فليس من اليسر في شيء أن تؤلف كتاباً يتناول بالبحث التجريبي علوم الرياضة منذ مبادئها الى أدق نتائجها . على ان كتاب كهذا اذا الف فليس له حظ من الفوز لان أحـداً من المعلمين لن يقبله ولن يرضى عنـه . ولاجل أن يفوز مثل هذا الكتاب يجب أن يقدر المربون نفسية الطفل ويعلموا بان الطفل كما قلنا لن يفهم المجردات الا اذا انتقل اليها من المركبات . ومهما يكن من شيء فان اتقان البحث واجادة التفكير والاسترشاد بقواعد علم النفس كل ذلك يثبت ان العلوم الرياضـية يمكن أن تدرس درساً تجريبياً لا للاطفال فحسب بل لهم ولطلاب المدارس الثانوية والعالية أيضاً [١]

---

(١) ثم يأتي المؤلف بأمثلة رياضية صرفة أعرضنا عن ترجمتها لانها لا تزيد طريقه وضوحاً « المترجم »

الفصل السابع

تعليم العلوم الطبيعية وعلوم المواليد الثلاثة

العلوم التي قدمنا البحث عنها ولا سيما اللغات خليقة أن تدرس منذ الطفولة لانها شديدة الحاجة الى الذاكرة قليلة الاثر في تربية الملاحظة قليلة الاثر في تربية الملكات بوجه عام . أما علوم الطبيعة والمواليد فلهـا الاثر القوي في الملاحظة والحكم معاً .

١

تعليم علم المواليد

ليس هناك طريقة أنجع الى تكوين العقل وتنمية الملاحظة والحكم من درس علوم المواليد الثلاثة . لان هذا الدرس يظهر للطفل وللشاب وللرجل ان فى الشيء الضئيل الذي نزدريه في العشب في الحشرة في الحجر عالماً ملؤه العجب . فهو اذن ينمى ملاحظته وينمي حكمه ويحسن رأيه فيما حوله . ولـكن الجامعة استطاعت أن تجعل هذا الدرس اللذيذ المنتج ثقيلاً عقيماً . فهي لا تحفل بالاشياء وانما تضع مكان الاشياء وصف الاشياء . فالتلميذ لا يعرف شيئاً مما حوله وانما يحفظ كتباً ويستظهر دروساً يتلوها وقت الامتحان عن ظهر غيب . وانظر كيف يحكم عالم فيلسوف أستاذ في السربون هو المسيو « وستر » على المنهج الذي يتخذ في هذا الدرس . فهو يرى ان هـذه العلوم لا ينبغي أن تدرس بين جدران أربعة ولا أمام لوحة سوداء ولا بواسطة قطعة من الطباشير . وانما ينبغى أن تدرس في الحدائق والغابات ومتاحف التـاريخ الطبيعي وما يشبه ذلك مما يجد فيـه التلميذ موضوع الدرس لا وصف هـذا الموضوع . ولـكنك لن تجد بين أساتذة الجامعة من يحسن الاستفادة لمثل هذه النصيحة الرشيدة . فخير للمدارس الثانوية أن تعدل عن درس هذه العلوم فان

درسها على هذا المنهج المألوف لا خير فيه وحسبك ان الطالب لا يقضي أشهراً بعد الامتحان حتى يكون قد نسي ما حفظ

٢

درس الجامعة للعلوم التجريبية

اذا كان لك منهج من المناهج كلفت بتطبيقه على شيء . وللجامعة منهج من المناهج هو الاعتماد على الذاكرة فهي تصطنعه في كل شيء . تصطنعه في اللغات والآداب . تصطنعه في الرياضة . تصطنعه في علم المواليد الثلاثة وتصطنعه في الطبيعة والكيمياء فهي اذن تدرس هذين العلمين درساً قوامه الحفظ والاستظهار ومصدره الكتاب لا العمل . ويجب على التلميذ أن يستظهر الصيغ والقوانين وأوصاف الادوات وطرق اصطناعها . اما أن يلجأ الاستاذ الى المعمل أو الى أداة من أودوات المعمل . اما أن يصطنع الاستاذ لشرح نظرية من النظريات تجربة أو أداة فذلك شيء نادر شديد الندرة . لا يمس التلميذ أداة من أدوات المعمل فذلك محظور عليه . ولا نكاد الاستاذ يمس أداة من أدوات المعمل لانه لا يحسن استعمالها من جهة ولانه يخشى أن يكدر صفو النحاس والمعدن اذا تناولته الايدي . فيجب أن يظل هذا النحاس والمعدن جميلا خلاباً من دون الزجاج . ولقد شعر بذلك علماء الجامعة أنفسهم فوصف هذا المنهج المسيو « لشاتلييه » في رسالة وضعها عن درس العلوم وبيّن ان الاساتذة لا يعتمدون في درس الطبيعة على أدوات المعمل بل على وصف هذه الادوات وهم يسرفون في هذا الوصف كما يسرفون في هذه الادوات فربما حفظ الطالب ثلاث عشرة طريقة لقياس الحرارة حين لا يوجد في الواقع الا اثنتان . وليس حظ الكيميا بأحسن من حظ الطبيعة فدرس هذا العلم لا يعتمد على المعمل ولا على العمل وانما يعتمد على الذاكرة التي تستظهر الصيغ والقوانين والحروف دون أن تنفع أو تنتفع . ولقد يرى مسيو « لشاتلييه » وهو في ذلك محق ان مصدر الشر في درس العلوم التجريبية انما هو الامتحان والمسابقات التي لا يفكر الاساتذة والمؤلفون الا فيها . فلهم هذا التفكير عن العلم وعن

تلاميذ وغريب أن عنايتهم بالامتحان لا تكفل للتلميذ النجاح في الامتحان .
مهما تقل وسعها نلح فلن تتغير مناهج التعلم في الجامعة . واذن فنحن نذهب
إلى ما نقوله في هذا الموضوع مذهباً فلسفياً خالصاً

٣

نفع العلوم التجريبية في التعليم الاولي

أثر التعليم التجريبي في التربيـة عظيم . ويجب أن يتعجل المعلم في اخذ الطفل بهذا النوع من التعليم منذ طفولته الاولى . واذن فقبل أن نبحث عن طريقة هـذا التعلم في المدارس الثانوية يجب أن نبين طريقتـه في المدارس الاولية . على ان العناية بالتعليم التجريبي في هذه المدارس ليس حديث العهد . فالناس جميعاً يعلمون ما أفاد الالمان من تجارب « فروبل » و « بستالوتزي » . أما الجامعات اللاتينية فقد ازدرت هذا التعليم دائماً . وشاركها الالمان في ذلك حيناً ولـكنهم عدلوا عن هذا الخطأ فانتفعت بذلك صناعاتهم انتفاعاً عظيماً . أما الانجليز فلم يحتاجوا الى تكلف الجهد في ذلك لانهم لم يفهموا التعلم في يوم من الايام الا على النحو التجريبي . فليست لهم مدرسة تخلو من العمل اليدوي مهما تختلف منزلة هذه المدرسة ومهما تتفاوت طبقات الاطفال الذين يختلفون اليها حتى ان المدارس التي لا يدخلها الا الاغنياء الذين لا يحتاجون الى ان يكسبوا حياتهم تعنى بهذا التعليم عناية خاصة فيختلف التلاميذ الى المعامل كما يختلفون الى قاعات الدروس وقد يكون أستاذ البيان معلماً نجاراً أو كهربائياً . والناس جميعاً يعلمون ان المهندسين الانجليز انما يتربون في المعامل . ولقد ازدرينا نحن هذا النوع من التعليم ازدراءً شديداً حتى استطاع أحد المفتشين في وزارة المعارف أن ينكر أمام لجنة التحقيق نفع دروس الاشياء لان التلاميذ في رأيه لا يفهمون وانما يحفظون . فهم يستظهرون ألفاظاً يخلطون بعضها ببعض خلطاً شديداً . ولو ان هذا المفتش فكر قليلا لعرف ان خطأه شديد . لسنا نريد أن يستظهر الاطفال ألفاظاً وانما نريد أن تكون الاشياء موضوع دروس الاشياء . نريد أن يدرس التلاميذ حقائق لا ألفاظاً . وقد تختلط عليهم الالفاظ ولـكن

الحقائق لن تختلط عليهم أبداً . فاذا رأى الطفل أو لمس معدنين مختلفين فلن يخلط بينهما وان خلط بين اسميهما . ومن اليسير جداً أن تستخدم طرق كثيرة مختلفة لتعليم الاطفال بواسطة التجربة ضروباً من قوانين الطبيعة والكيمياء وقد ألفت في ذلك كتب مختلفة نافعة ولكن الاساتذة يمرون بها معرضين عنها لانهم يعتقدون أن ليس فيها خير وان الطفل سريع الملل اذا أخذته بالدرس الصحيح . نظرية خاطئة من كل وجه فيكفي أن تعرف كيف تأخذ الطفل بالدرس لترى كيف يرغب الطفل في الدرس وكيف يمكن أن يتعلم بواسطة التجربة ضروباً من العلم بل كيف يمكن أن تفسر له بواسطة التجربة قوانين الثقل والجاذبية والصوت والضوء وطائفة من أعمال الكيمياء

٤

درس العلوم التجريبية في المدارس الثانوية

فاذا أعد الطفل على هذا النحو سهل عليه في المدارس الثانوية أن يتقدم لدرس هذه العلوم بطريقة نافعة . فان أثر هذه العلوم في التربية عظيم جداً اذا عرف الاستاذ كيف ينتفع بها واذا لم يصطنع في درسها الا التجربة . وأدوات هذه التجربة في المدارس الاولى ليست كثيرة ولا غالية وانما هي قليلة سهلة وليس فيها شيء من الخطر اذا أحسن استعمالها فطائفة الانابيب والآنية وموقد من مواقد الكحول تنفع في تجارب الكيمياء . وطائفة من الادوات اليسيرة تنفع في تجارب الطبيعة . ولقد اشتريت مجموعة من الادوات التي يستخدمها الانجليز لتجارب الطبيعة أمام الاطفال فاذا هي مجموعة ينتفع بها في جميع نظريات الضوء واذا هي لا تكلف اكثر من خمسة وثلاثين فرنكا بينما مثل هذه المجموعة في فرنسا لا تنقص قيمته عن الف فرنك لانا نؤثر الشرف دائماً في كل ما نصنع . وبمثل هذا الثمن تستطيع أن تشتري مجموعة الادوات اللازمة لتجارب الكهرباء والقاعدة ان التلميذ يصنع بنفسه هذه الادوات من المواد التي تقدم اليه ونقدم اليه مع هذه الادوات رسالة صغيرة ترشده الى طرق استعمالها وتلقي عليه طائفة من المسائل تكلفه حلها وهي لا تنقص عن

الآلة مسألة وربما اعجزت الذين بلغوا شهادة الليسانس من طلابنا . على ان شيئاً مما تقدم ليس جديداً . فكل هذه الآراء كانت معروفة منذ زمن طويل ولم يزد الانجليز والالمان على أن انتفعوا بهذه الآراء التي كانت شائعة فينا منذ اكثر من نصف قرن . وانظر كيف يعرض هذه الآراء عالمنا المعروف « دوماس » وان كنا لم ننتفع بما عرض :

« يجب أن تستوحي الطبيعة لا أن تستوحي الكتب . فلم يخترع الانسان علم الطبيعة وانما انتهز ملاحظات قدمتها اليه المصادفة فكررها وغير ظروفها واستخلص نتائجها . فاذا خيلت الى الطلبة ان الانسان يستطيع أن يستغني عن الحقيقة الواقعة التي هي مصدر العلم وأن يضع العلم بالتفكير المنطقي وحده فقد أعددت للبلاد شبيبة مغرورة عقيمة . ولن نبلغ الكفاية من الالحاح على الاستاذ اذا أراد أن يدرس استكشافاً من الاستكشافات في أن يقدم بين يدي هذا الدرس خلاصة تاريخية يبين فيها أصل الاستكشاف وربما كان من الحق عليه أن يعيد أمام التلاميذ الواقعة التي دعت الى هذا الاستكشاف . وهو ان عمل ذلك لم ينس تلاميذه ان الطبيعة علم تجريبي يستعين بالرياضة ولم يتورطوا في هذا الخطأ الذي يحملهم على اعتقاد ان الطبيعة علم رياضي يستعين بالتجربة . ولن يبلغ الاستاذ الكفاية من سوء الظن بشيء له الاثر السيء في التعليم وهو هذه الادوات المعقدة الدقيقة تصرف التلاميذ بدقتها وتعقيدها عن موضوع البحث فيعنون بالاداة اكثر مما يعنون بالتجربة نفسها . وغلاء هذه الادوات يحول بين كثير من الطلبة وبين التفكير في الاختصاص لانهم يفترضون أن ملك هذه الادوات لن يتاح الا لاصحاب الثروة الضخمة وأي شيء أيسر من هذه الطرق التي اصطنعها « فلتا » و « دلتون » و « جي لوساك » و « بيو » و « مالوس » و « فرينل » لتأسيس علم الطبيعة الحديث . ولقد كان هذا الجيل من العلماء يصطنع في تأسيس هذا العلم أدوات مألوفة ليست بالغالية ولا بالمعقدة حتى ليصح أن نتساءل الآن ألم يصبح علم الطبيعة رهيناً باهواء أولئك الذين يصنعون أدوات المعامل

وليس بنا حاجة الى تأييد ما قال هذا العالم . فكل شيء يؤيده وحسبك أن تنظر في تاريخ العلماء المخترعين وفي اختراعاتهم ولا سيا العظيمة منها لتعلم

انها نتيجة استخدام الادوات السهلة . وليس معنى ذلك ان الادوات الدقيقة ليست لازمة وانما معناه ان هذه الادوات ضرورية لمن يريد التحقيق والتثبت لا لمن يريد تفسير الظواهر المختلفة

هناك نوع من أنواع العلم له أحسن الاثر في التربية وتكوين العقل وتنمية الملكة العلمية لو عنيت به الجامعة . ولكن الجامعة تزدريه ولعلها تجهله . هذا النوع هو تاريخ الاستكشافات العلمية فاذا كان للتجربة أثرها في اتقان فهم العلم فان لهذا التاريخ أثره في اتقان الفهم أيضاً . بل في ايجاد العقل العلمي عند التلميذ . ارأيتك اذا بينت للتلميذ كيف وصل العلماء والمستكشفون الى علومهم واستكشافاتهم وما سلكوا اليها من سبيل وما لقوا في سبيلها من مصاعب وما اتخذوا من حيلة لتذليل هذه المصاعب كيف تفتح عقله وتنظم ملكاته وتغنيه بهذا الدرس النافع اللذيذ عن مجلدات عقيمة من المنطق

قليل جداً من العلماء من ينصح بدرس هذا التاريخ ولكنهم موجودون على كل حال . موجودون في فرنسا وموجودون في انجلترا . فقد ذكرنا « دوماس » ونستطيع أن نذكر من الانجليز « ميكايل فورستر » ومن الفرنسيين مسيو « لشاتليه » الذي يلح في درس هذا التاريخ بل لا يقف عند درس التاريخ وانما يريد أن تدرس المذكرات التي كتبها العلماء والمستكشفون وأن تنقد وأن يقارن بين مناهج العلماء والمستكشفين على اختلافها والا يستغني عن هذا كله بالمختصرات . فالمختصرات نافعة حين تستعد للامتحان ولكنها عقيمة حين تحاول تكوين العقل . والامر في العلم كالامر في الادب . فكما ان اختصار الشعراء والكتاب النابهين لا يظهرك على الجمال الادبي فاختصار العلماء والمستكشفين لا يظهرك على الحركة العلمية . ولكنك لن تستطيع أن تحسن مع التلاميذ درس تاريخ العلم والاستكشاف الا اذا عنيت بدرسه درساً خاصاً . الا اذا كلفت به وأشعت اليه . تريد أن تكون تلميذك ويريد فيجب أن تفكر أنت وتريد . فاما أن تكون مقلداً وتأخذ تلميذك بالاجتهاد فذلك شيء لا غناء فيه . وقليل جداً من الاساتذة من يعملون في العلم عمل المجتهد لا عمل المقلد . ولهذا قل أثر الاساتذة في تكوين الذكاء وان كثر عدد الناجحين من تلاميذهم في الامتحان . ولقد أشار مسيو « ريبو » رئيس لجنة التحقيق في خطبة

القاها أمام مجلس النواب الى تفع تاريخ الاستكشاف العلمي فبين له وجهاً جديداً . ذلك ان الذين يدرسون تاريخ الاستكشاف يشعرون حماً بهذا الجهد العنيف الخصب الذي تبذله الجماعات الحديثة في سبيل الوصول الى العلم والحق . واذا شعر التلميذ بهذا الجهد امتلأ قلبه حباً للجماعة التي هو منها . وحسبك بهذا أثراً حسناً في تكوين الوطنية الحديثة

ولقد نجحت الجامعات الالمانية نجاحاً باهراً كانت نتيجته هذا الرقي الصناعي العظيم . وليس هذا الرقي أثراً من آثار المعامل العلمية وحدها فهذه المعامل ليست خيراً من معاملنا لاننا نحاكيها . وانما هو أثر من آثار مناهج التعليم التي تمكن الطالب من أن يعلم اكثر ما يمكن ويتقن هذا العلم . يجب أن نذهب الى المانيا لنرى معامل الكهرباء تستخدم ١٧٠٠٠ من العمال ولنرى معامل المعادن تستخدم ٤٠٠٠٠ من العمال ولنري معامل المستخرجات الكيمائية تنتج ما لا تنقص قيمته عن مليار في السنة

عظم أمر الصناعة في المانيا وأشفق الصناع من الجمارك وضرائبها فتفرقوا في أقطار الارض ينشئون المعامل في البلاد الاجنبية ويزاحمون أهل هذه البلاد فيزحمونهم . لهم في باريس معمل للادوات الفوتوغرافية والمناظير المعظمة يستخدم ٣٠٠ ويخرج مصنوعات أجود وأقل ثمناً من مصنوعاتنا . وبينما يتقدم الالمان في هذه الطريق الخصبة المنتجة يمضي تلاميذنا وأساتذتنا في التعليم العقيم . نعد أبناءنا للامتحان والمسابقة ويعدون أبناءهم لحقائق الحياة

الفصل الثامن

تربية أبناء المستعمرات

نقلنا مناهجنا التعليمية السيئة الى المستعمرات التي نحكمها فأنتجت هـذه المناهج بحكم الضرورة أقبح النتائج وأردأها . ولقد تفضل المسيو « پول جبران » حاكم الهند الصينية فبين لنا في هذه الصحف ما يجب أن تكون عليـه مناهج التعليم في المستعمرات . فأنا أترك له الـكلام :

« تظهر التجربة ان الشعوب المستعمرة ولا سيما الشعب الفرنسي قد فشلت في تربيتها للمستعمرات . ذلك ان تربية أمة لأمة انما تنجح وتؤتي ثمرها اذا استطاعت الامة المربية أن تنسى مثلها الاعلى الخاص وأن تضع أمام الامة التلميذة مثلا أرقى قليلا من مثلها الاعلى الذي ألفته . وقد اراد تكويننا العقلي ان نعتقد أن جميع الشعوب المنحطة تشبهنا وتعدلنا فأخـذنا أنفسنا بان نربي هذه الشعوب كما نربي أنفسنا ونضع امامها غايتنا الاجتماعية الخاصة فنضطر الى تغيير عادات هذه الشعوب وأخلاقها ونظمها المختلفة ونفسيتها نضطر الى محاولة ما لا سبيل اليه

نغير النظم ونزعم اننا نغير العقل . نؤثر في العقل بالتعليم ونزعم اننا نؤثر في الاخلاق . نبتـدئ البناء من أعلاه نؤثر في النتيجة ونزعم اننا نؤثر في العلة فنغير بهذا منهج الطبيعة . ولا ينتج لنا هذا الا نتائج سلبية

تعتقد الشعوب المتحضرة أن التعليم يمكن ان يتخذ وسيلة الى التربية ومع ذلك فالتعليم يعتمد على الذاكرة بملأ الرأس بالمعلومات وقد يكون لهذا أثره في تنمية ملـكة الحـكم والفهم ولـكن أثره قليل جداً أو غير موجود في تربيـة الاخلاق . فليس بين الاخلاق والذاكرة صلة وليس بين الاخلاق والمنطق صلة وانما المؤثر في تربية الاخلاق هو المثل والبيئة . وهناك شيء آخر يضاعف خطأ هذه الشعوب في تربية الامم المنحطة . فهي تعتمد في تربيـة هذه الامم على التعليم وعلى التعليم بلغاتها الاوربية . وليس من شك في أن هـذه اللغات الاوربية بعيدة كل البعد عن عقول هؤلاء الناس . ومصدر هذا ان هناك صلة

قوية بين اللغة وبين تكوين المخ في الامم التي تتكلمها . واذ كان العقل في تطور مستمر يختلف باختلاف العصور والأمكنة فاللغة خاضعة لهذا التطور نفسه واذن فلغة الفرنسيين لا تلائم عقل الهنود بل ان هناك الفاظاً تدل على معاني يظهر انها مشتركة بين الناس جميعاً والحق انها مختلفة كل الاختلاف . فالمثل الاعلى من الجمال عند الفرنسيين يخالف المثل الاعلى من الجمال عند الاسيويين والافريقيين . وحب الخير عند المسيحيين يخالف حب الخير عند الهنود وعند المسلمين . ولكل لغة مهما اختلفت في الرقي أو الانحطاط آراء ومعاني تدل عليها الفاظ ولا يفهمها الا أهلها . وهي تخالف آراء اللغات الاخرى ومعانيها كما تختلف ألفاظ اللغتين فاذا القيت العلم الى الهنود بلغة الفرنسيين فلن يفهموا العلم كما تفهمه أنت وكما تدل عليه لغتك وانما يفهمونه كما تعودوا أن يفهموه وكما تدل عليه لغتهم . يستعيرون ألفاظك ويدلون بها على معانيهم

وكل ما تقدم يدل على النتائج التي يمكن أن ينتهي اليها تعليم الشعوب المنحطة باللغات الاوربية . وقد رأينا هذه النتائج غير مرة عند أهل « انام »

عجيب اننا نقبل في غير تردد ان انتقال الآراء والعقائد من موطن الى موطن يفسدها ويغيرها دون أن نؤمن بهذا نفسه بالقياس الى آرائنا وعقائدنا . فنحن نقبل ان انتقال البوذية من الهند الى انام قد غير فيها شيئاً كثيراً ولكنا لا نريد أن نصدق ان انتقال مبدأ الحرية والمساواة والتضامن الى هذه البلاد يغيره أو يؤثر فيه . ومع هذا فقد أظهرت التجربة ان الانامين لا يفهمون هذه المبادئ كما نفهمها ولا يقدرونها كما نقدرها . ولقد أحسسنا ذلك وبلوناه فاضطررنا الى الغاء الجامعة الهندية الصينية التي أنشأناها لنشر العلوم والمناهج الاوربية باللغة الفرنسية في الشرق الاقصى والتي كانت تتألف من أقسام مختلفة للحقوق والادارة والعلم والادب . ألغينا هذه الجامعة لاننا رأينا انها لم تخرج الا شباناً مهوسين خطرين علينا وعلى أمتهم

تخضع الشعوب في تطورها لقوانين لا منصرف عنها ومع هذا فنحن نؤمن بقدرة الثورات على تغيير العالم ونؤمن بقوة القوانين على اصلاح النظم المختلفة حتى لقد كتب مسيو « فوييه » يقول اننا نرى في القوانين عصى سحرية تمس النظم فتصلحها . يكفي أن نصدر القانون لتتغير الاخلاق والعادات والملكات

« المادة الاولى : الفرنسيون جميعاً فضلاء

« المادة الثانية : الفرنسيون جميعاً سعداء

وقد أظهرت التجربة الا نفع للتربيــة اذا لم تكن ملاءمة لمـا استقر من الاخلاق والعادات والنظم . واذن فيجب أن نلاحظ هــذه القاعدة في تربية المستعمرات ولا سيما في التعليم . فيجب أن يكون هــذا التعليم ملائماً لأطوار هذه المستعمرات واذا حققنا النظر في أمور هذه المستعمرات عرفنا ان التعليم الاولي وحده يكفي لحاجاتها . فهي غير محتاجة الى التعليم الثانوي والعالي بل غير قادرة على احتمالها . يجب أن نجتنب في هــذه المستعمرات بنوع خاص الفلسفة والحقوق والسياسة والاخلاق . يجب أن نكتفي بالتعليم الاولي وبالتعليم الفني بل وأن نسير في هذا التعليم الفني على حذر شديد . فليس ينبغي أن تنقل الى هــذه المستعمرات من التعليم الفني الا ما هي محتاجة اليه . التعليم الزراعي في البلد الزراعي والتعليم الصناعي في البلد الصناعي . بل يجب أن نقتصد في هذا أيضاً فلا نعلم أهل البلاد الحارة زراعة البلاد المعتدلة . يجب أن نبدأ في هذا التعليم مقتصدين فنغير في هدوء ولطف ما ألف هؤلاء الناس من مناهج الزراعة والصناعة قليلا قليلا . فاذا أردنا أن ندخل عليهم من الزراعة والصناعة ما لم يألفوا فلنترفق في ذلك ولنقتصد فيــه ولنتبع هــذه القاعدة حتى مع المستعمرات التي تسكنها أمم متحضرة كالاناميين والعرب . هذه الامم ليست في حاجة الى المهندس ولا الطبيب من أبنائها وانما هي في حاجة قبل كل شيء الى الزارع والعامل . في هذا النحو من التعليم نفعها وفيــه نفعنا أيضاً . فاذا جاء الوقت وتمكنت هــذه الامم بحكم التطور البعيد الطويل من أن ترقي الى التعليم الثانوي أو العالي فلتأخذ بنصيبها منه . يجب أن نتقي الاسراف في كل شيء[1]

---

(١) يجب أن يلاحظ القارىء ان العالم قد ترك مكانه في هذا الفصل للمستعمر وليس يعنينا من المؤلف أن يؤثر العلم على الاستعمار أو الاستعمار على العلم فهو فرنسي يبحث عن نفع فرنسا . فيخطىء مرة ويصيب أخرى وانما الذي يعنينا هو أن نلفت القارىء الى أن هــذه المناهج التي يعرضها المؤلف لتعليم المستعمرات قد اتخذها الفرنسيون وغير الفرنسيين فلم يفلحوا . وانظر الى ما وقع في مصر وغير مصر . فليست المسألة هي منهج التعليم في المستعمرات وانما المسألة هي الاستعمار نفسه . يريد المؤلف وأمثاله أن يوفقوا بين مبــدأين متناقضين لا سبيل الى اتفاقهما . مبــدأ الاستعمار ومبــدأ الحضارة . فالاستعمار يستلزم الاذلال

الفصل التاسع

التربية بواسطة الجيش

١

أثر الخدمة العسكرية في التربية

ظهر مما تقدم ان تعليم الجامعة اذا كان ضعيفاً رديئاً فالتربية فيها غير موجودة . وقد أجمع على ذلك الناس على اختلافهم وشعروا به منذ زمن طويل وقالوا فيه الكلام الكثير[1] . ورأينا ان ليس الى اصلاح الجامعة من سبيل وان الخلال التي تنقصنا ويمتاز بها الانجليز كالثبات والارادة والابتكار وضبط النفس والقدرة على احتمال المكروه ومضاء العزم كل هذه الخلال لا يمكن ان نطلبها الى الجامعة لانها تمنحنا اياها بل هي تمحوها من نفوس الشبان اذا أخذوا منها بنصيب . واذن فيجب أن نبحث عن وسيلة أخرى لكسب هذه الخلال للانتفاع بهذا الجيش العاطل المضحك المخجل من الذين يحملون شهادات الجامعة فهل توجد وسيلة لكسب هذه الخلال غير الجامعة ؟ نعم . ولكن يجب أن تكون هذه الوسيلة ممكنة الاستعمال أي يجب ألا تكون مناقضة لما ألف الناس من رأي وعادة . وهذه الوسيلة موجودة كما قلنا وهي واحدة . هي الجيش . فانت تعلم ان الشباب الفرنسي كله مكلف الخدمة العسكرية سواء في ذلك أصحاب الشهادات الثانوية والعالية . والجيش وحده قادر على أن

والاستعباد . والحضارة تستلزم الحرية والاستقلال . ومهما يكن سلطان الامم القوية فلا بد من أن تضطر في يوم قريب أو بعيد الى أن تعترف بفشل الاستعمار . ذلك ان ظروف الحياة قد تغيرت فاصبحت هذه الامم القوية لا تستطيع أن تستغل مستعمراتها الا اذا بثت فيهم فكرة الحرية والطموح الى الاستقلال . فالاستقلال يهدم نفسه بنفسه وكذلك الامر في كل شر وفي كل جور (المترجم)

(١) نقل المؤلف من آراء الناس في هذا شيئاً كثيراً جداً ترجمنا بعضه ولخصنا بعضه الآخر وأعرضنا عن بقيته (المترجم)

يصلح ما أفسدت الجامعة على أن يرقي هذا الشعب الفرنسي الذي انحطت به الجامعة انحطاطاً فاحشاً . على أن يكسب هذا الشعب من الخلال ما هو في حاجة اليه . وكلنا يعلم النتائج الحسنة التي وصل اليها الجنرال « بونال » والجنرال « جليني » فلم يبق الا تعميم التجربة وأن يضاف الى قانون الخدمة العسكرية الاجبارية التي تمتد ثلاث سنين قانون آخر يقضي بألا يصل الى مناصب الدولة مهما تكن احد الا اذا أمضى في الجيش خمس سنين في رتبة صف ضابط . فان نحن فعلنا هذا بلغنا منه نفعاً عظيماً لا حد له . ولكنا نعلم ان هذا ليس بالشيء اليسير فان طبقة الاساتذة والمفكرين تكره الجيش وتمقت الخدمة العسكرية التي تسلبها امتيازاتها وهي تحتج في ذلك بان الخدمة العسكرية تضيع على الطلاب ثلاث سنين وتنسى ان هذه السنين الثلاث أنفع للطالب وأجدى عليه من سنين ثلاث يقضيها في قراءة الكتب واستظهار ما لا يفيد . وتنسى شيئاً آخر وهو أن غير الطلاب من العمال والزراع يضحون في سبيل الخدمة العسكرية بثلاث سنين من عملهم وزراعتهم ولا يأسفون لهذه التضحية وهم ليسوا أقل خطراً من الطلاب ولا من الاساتذة والمفكرين

فكرة احتقار الجيش التي انتشرت الآن في هذه الطبقة المفكرة خطرة كل الخطر . يكفي أن تنتشر في الشعب لتفقد الامة الفرنسية وجودها السياسي

٢

النتائج الاجتماعية للقوانين العسكرية القديمة

كانت قوانيننا العسكرية تسرف في اعفاء بعض الافراد والجماعات من الخدمة العسكرية فأنتج هذا الاعفاء نتائجه السيئة المختلفة . وأهم هذه النتائج انصراف الشباب عن الحياة العاملة المثمرة الى ضروب الحياة الفكرية العقيمة ويكفي أن تنظر الى هذه الاعداد الضخمة التي استفادت بمبدأ الاعفاء من الخدمة العسكرية كلها او بعضها فتحولت عن الجيش الى المدارس المختلفة كمدرسة اللغات الشرقية ومدارس الزراعة والتجارة والصناعة والمدارس النظرية الخاصة لا لشيء الا لان هؤلاء الطلبة يفرون من الخدمة العسكرية

ويلجأون الى هذه المدارس فيحصلون منها على شهادات لا تنفعهم ولا تفيدهم لانهم اكثر من حاجة البلد ولانهم قد أساءوا التعليم وهم أضعف من أن ينتفعوا بما تعلموا . ومع هـذا فلو انهم ذهبوا الى الجيش وأدوا خدمتهم العسكرية لانتفعوا كثيراً ونفعوا كثيراً وضمنوا لانفسهم العمل في الحياة . ذلك انهم في الجيش يجدون ما هم في حاجة اليه من النظام وحبه والخضوع له ومن التضامن والتعاون ومن ضبط النفس وأخذها باحتمال المكروه ومن حسن التصرف في الحياة والتغلب على المصاعب . ويكفي أن تنظر الى الامم التي تحسن استخدام الجيش لتعرف ما للخدمة العسكرية الصالحة من النتائج الحسنة

٣

أثر الضباط في التربية

شعر الناس منذ زمن طويل بنفع الخدمة العسكرية الاجبارية في الاصلاح العام وازالة ما تركت الهزيمة الاخيرة من الآثار السيئة واعتقدوا ان هـذه الخدمة العسكرية ستزيل الاختلاف الحزبي وتكون الوحدة القومية وتوجد في نفوس الشعب كل هذه الفضائل القيمة التي تستظل بظل اللواء

ولـكن التجربة أظهرت ان ما كان الناس ينتظرون شيء وما انتهت اليه الخدمة العسكرية شيء آخر . فلم تؤت هـذه الخدمة ثمراتها ومصدر ذلك فيما أعتقد ان الضباط الذين هم المكلفون تربيـة الجيش لا يفهمون واجبهم ولا يحسنون اداءه . فالضباط كل شيء في الجيش فاذا صلحوا صلح الجيش ويجب ليصلح الضباط أن يفهموا انهم مربون من جهة وأن يحسنوا الامر من جهـة أخرى . أما فهم انهم مربون فموقوف على المدرسة الحربية . يجب أن يتعلموا فيها من مناهج التربية ما يمكنهم من أن يحسنوا التأثير في نفوس رجالهم . وأما اجادة الامر فموقوفة على اجادة الطاعة . واذن فيجب أن يعمل الضباط عمل الجندي سنة مثلا ليعرف كيف يطيع . فهو اذا أحسن الطاعة أحسن الامر

اذا وصل الفساد والاضطراب وعدم الاكتراث الى الجيش من أمة من الامم فقـد دنت ساعة الانحطاط . على ان الجيل الجديد من ضباطنا يشعر

بواجبه حقاً فلا ينبغي وان تكاثفت السحب أن نيأس منه . التربيـة خليقة أن تمنح الشعب الذي يريد الحياة ما هو في حاجة اليه من الخلال وقد عرف الجيش والجامعة في المانيا كيف يتعاونان على اصلاح التربية ووفقا الى ذلك ولم يوفقا في فرنسا . ولـكن هذه المسألة لا تزال موضوعة موضع البحث أمام الاجيال الى حلها فنحيا أم تخطئ هذه الاجيال حلها فيكون هذا آخر عهدنا بالتاريخ

* * *

أما بعد فقد انتهى هذا الـكتاب الذي قد يكون أقل ما كتبت نفعاً . فان شكوى القضاء عمل عقيم لا يكاد يحسن بالفيلسوف . ومع ذلك فان ا كن قد نشرت هذا الـكتاب دون أن أخدع نفسي بنفعه فانما أقدمت على ذلك لان الآراء التي يبذرها القلم تنتهي دائماً الى الانبات مهما تـكن الارض التي بذرت فيها صخرية مجـدبة . ومع ان الظواهر تخيل الى الناس ان الآراء التي تدير حياة الامم والشعوب لا تتغير بتغير الاجيال والعصور فالحق ان هـذه الآراء تستميل بطبعها قليلا قليلا . وكأننا قد وصلنا الى لحظة من هـذه اللحظات النادرة في التاريخ تستعد فيها آراؤنا لقليل من التغير . ان اختيار مناهج التعليم أشـد أثراً وأجل خطراً بالقياس الى الشعوب من تغيير نظمها السياسـية والاجتماعيـة . واذا كان التحقيق البرلماني قد أظهر ان جمهور الناس لا يفهم مسألة التربية على وجهها فهو قد أظهر في الوقت نفسه ان هـذه المسألة قد أخذت تشغل هـذا الجمهور بنوع ما . فعسى أن يزيد اشتغاله بها وأن ينتهي ذلك الى تغيير وجهة الرأي العام فيها . فان مستقبل فرنسا رهين بالحل الذي ستنتهي اليه مسألة التربية

ان تطور العالم سريع واذا لم نلائم بين حياتنا وبين هـذا التطور فنحن هالـكون . كانت البلاغة والدقة النحوية والذوق الادبي والفني كافية في وقت من الاوقات تتيح لبعض الشعوب أن يتقدم غـيره في الحضارة حين كان هذا الشعب يلقي بأموره الى أيدي الآلهة أو الملوك . أما اليوم فقد ماتت الآلهة ولا تكاد تجد شعباً يسلم نفسه حقاً لسيد من السادة فليس للحكومات في الحوادث الا أثر قليل وقد خضعت ارادات المستبدين لقوانين اقتصادية واجتماعية ليس لهم فيها تأثير . وأصبح الانسان الذي كانت تحكمه الآلهة أو يحكمه الملوك خاضعاً

لطائفــة من الضرورات ليس له منها مفر ولا مخلص . وأصبحت نظم الحياة العامة لشعب من الشعوب رهينة بقوانين مصدرها العلاقات التجارية والصناعية والاقتصادية بوجه عام . واذ قد فقد الانسان الحديث معونة هــذه القدرة الالهية الخيرة التي كانت تدبر الحياة على أحسن وجهة فقد أصبح مضطراً الى ألا يعتمد على نفسه ليجد مكانه في الحياة . وهذا المكان لا يصل الانسان اليه بما يعلم وانما يصل اليه بما يستطيع أن يعمل . وقد وصلنا الى طور من الحياة نجعل خطر الاخلاق أجل من خطر الذكاء فليس للذكاء قيمــة اذا لم يعتمد على القوة والارادة وضبط النفس . والتربيــة وحدها خليقة أن توجد هذه الاخلاق اذا لم تكفلها الوراثة . وقد رأينــا فساد التعليم والتربيــة في بلادنا وأظهرنا ان كل اصلاح لا خير فيه اذا لم تتغير نفسية المعلمين . وأظهر ما نقلناه ان الناس اذا استيقنوا بسوء نتائج التعليم فهم يجهلون أسباب هــذا السوء . فــكل بناء التعليم عندنا في حاجة الى أن يعاد وقد أثبت هذا الكتاب ان مثل هذا العمل لا سبيل اليه الآن وبين أسباب ذلك . فكل ما يمكن ان نأمله هو ان ننتفع بهــذه الادوات السيئة التي في يدنا وأن نجني منها أكثر ما يمكن من الثمرات . قليل من حسن القصد يكفي لذلك . ولــكن الى من نطلب حسن القصد ونحن نرى ازدراء الجامعة واهمال الرأي العام . ومهما يكن من شيء فقد أتممت عملي . ولم أكن أريد الا ان أضيء السبيل لقوم مترددين مضطربين . فعلى رسل الاصلاح الآن أن يهزوا الجماعات حتى يخلقوا هذا التيار الذي تعجز عن مقاومته الابنيــة المتزعزعة . ولتثق بان هذا العمل لن يجــد مقاومة من الاحزاب بل لا بد من أن تؤيده الاحزاب كلهــا في يوم من الايام ومستقبل فرنسا رهين بالفوز في هذا العمل . هذا البلد العظيم الذي كان منار الحضارة قديماً يتأخر كل يوم عن منزلته الاولى . فاذا لم تتغير الجامعــة فيسخط هذا البلد الى حيث تفنى الامم والشعوب.

4901
SIA